الموقع الجغرافى لتشاد وأثره فى تكوينها العام

مع الاهتمام باللغة والدين*

أ . د . محمد عبد الغنى سعودى**

موقع تشاد والوضع الطبيعى

حوض منخفض من الناحية الفزيوغرافية، ترتفع جوانبه تدريجيًا من بحيرة تشاد بارتفاع يبلغ نحو ٢٥٠ مترًا فوق سطح البحر إلى مرتفعات إنيدى وتبستى فى الشمال وهى التى يسمو ارتفاعها على ثلاثة آلاف متر . كما يرتفع هذا الحوض بالاتجاه جنوبًا حيث مرتفعات تقسيم المياه بين نهرى شارى والأوبانجى . هذا الحوض الضخم الذى تحتله الدولة بمساحة ١,٢٨٤,٠٠٠ كم٢ ممتدة بين درجتى ٧,٢٠ ، ٢٣,٣٠ ، شمالاً ، جعلها أقرب إلى المستطيل ، فامتدادها الشمالى / الجنوبى يبلغ نحو ١٦٠٠ كم فى حين أن متوسط عرضها ٨٠٠ كم ، ولكن هذا المستطيل المتماسك المتجمع compact يمتد فى طرفه الجنوب الغربى بزائدة exclave أقرب إلى الزائدة الدودية فى الإنسان ، وهذه الزائدة تمتد ما بين جمهوريتى الكمرون وإفريقية الوسطى .

هذه الاستطالة جعلت تشاد تتضمن ثلاثة أقاليم مناخية نباتية كبرى ، قل ثلاثة أقاليم جغرافية كان لها أثرها فى ضروب معيشة السكان ، فالإقليم الصحراوى الشديد الجفاف يمتد من الحدود الليبية الجزائرية حتى درجة عرض

---

* بحث ألقى فى ندوة جامعة الملك فيصل بنجامينا ، ٢١ - ٢٦ يناير ٢٠٠١ .

** أستاذ بمعهد البحوث والدراسات الإفريقية ـ جامعة القاهرة .

المحيط الأطلنطى
المغرب
الجزائر
ليبيا
مصر
موريتانيا
النيجر
السودان
السنغال
غينيا
نيجيريا
إثيوبيا
كينيا
تنزانيا
أنجولا
زيمبابوى
ناميبيا
بتسوانا
جنوب أفريقيا
المحيط الهندى
موقع تشاد فى أفريقية
تشاد

شكل (١)

١٥ شمالاً تقريبًا وبذلك يمتد فى أكثر من ثلث مساحة تشاد ، وهى صحراء حقيقية لا ينالها من المطر إلا النذر اليسير ، وتتناثر فيها بعض الواحات والآبار التى يُسقى منها أشجار النخيل وقليل من الذرة الرفيعة والدخن ، ولا يعيش فيها إلا القليل من السكان (٢%) ، غير أن هذا الإقليم الذى لا نظام للمطر فيه ، قد تغزوه العواصف على جبال تبستى فيسقط المطر مدرارًا على سفوح هضاب الحجر الرملى لإردى وإنيدى ، وبمقدار ما يظهر المطر فجأة يختفى فجأة وتختفى المياه فى بطون الأودية قبل أن تصل إلى السهول . ولئن كانت هذه المجارى المائية لا تبلغ بحيرة تشاد ، فهى توفر مياهًا باطنية تلجأ إليها القبائل للحصول على الماء لها ولقطعانها[١] .

وفى الأطراف الجنوبية لهذا الإقليم يسقط نحو ٣٠ سم من المطر فى ثلاثة شهور ما بين يولية وسبتمبر ، فى حين أنه يظل جافا لمدة تسعة شهور ، وبغطيه بساط أخضر سرعان ما يهرع إليه رعاة الصحراء من الشمال بماشيتهم - وغالبيتها من الإبل - لرعى تلك الحشائش ، ولكن سرعان ما يقفر الإقليم أيضًا نتيجة لإجهاد الرعى ، وانقطاع المطر ، فيعود رعاة الإبل مرة أخرى إلى واحاتهم المتناثرة .

أما وسط تشاد أو ما يعرف جغرافيًا بإقليم الساحل ويمتد من النطاق الصحراوى السابق إلى شمالى نهر شارى ، ومن مراكز الاستقرار فيه أبيشيه ، ودبول ومنجو ، نجامينا العاصمة ؛ فيزداد فيه المطر إلى ٧٥ سم كما تسجلها نجامينا سنويًا ، ويبدأ مطره من أبريل ومايو ، ويقع فى هذا الإقليم أيضًا نصيب تشاد من بحيرة تشاد الذى تشاركها فيه كل من نيجيريا والنيجر والكمرون ، ومن ثَم فإنه مع زيادة رطوبة الإقليم قد تظهر المستنقعات وتزداد مياه الآبار . هذا هو إقليم

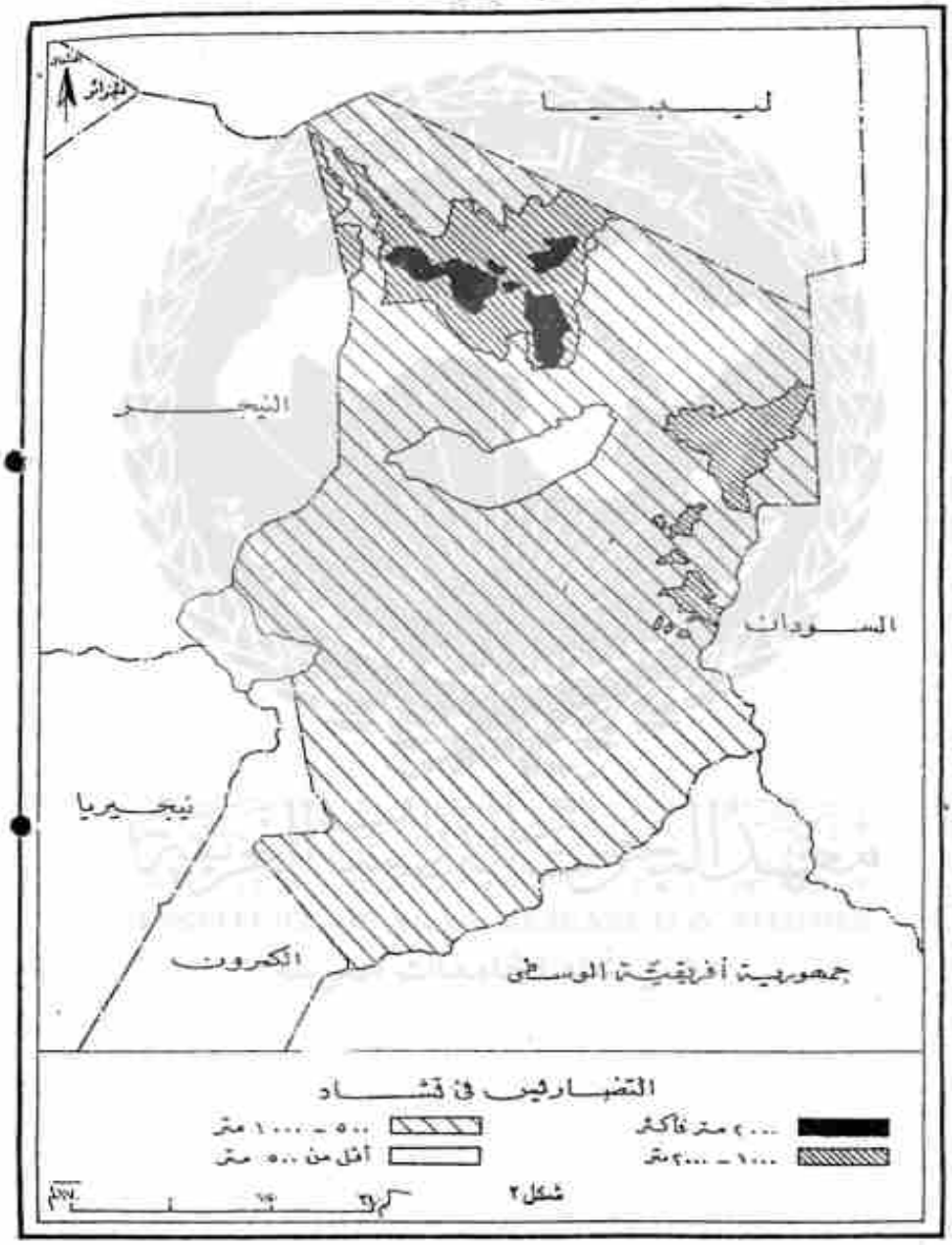
الجزائر
ليبيا
النيجر
السودان
نيجيريا
الكمرون
جمهورية أفريقية الوسطى
التضاريس في تشاد
٢٠٠٠ متر فأكثر
١٠٠٠ ـ ٢٠٠٠ متر
٥٠٠ ـ ١٠٠٠ متر
أقل من ٥٠٠ متر
شكل ٢

حشائش السفانا المكشوفة التى تتخللها الأشجار المقاومة للجفاف كأشجار السنط التى تتبعثر هنا وهناك ، وهنا تظهر الزراعة المختلطة ، أى إلى جانب تربية الماشية تقوم الزراعة ، وهى تقل حتى تختفى على الحدود الشمالية لهذا الإقليم.

ويعد خط ١٤ شمالا الذى يمر عبر بحيرة تشاد هو الحد الشمالى لزراعة المحاصيل اعتمادًا على المطر ، ومن ثم تقتصر الزراعة على الواحات المتناثرة ، ويتجه السكان بحيواناتهم فى تحركات فصلية ما بين الأطراف الشمالية حيث فترات المطر القصير ، ثم يعودون أدراجهم نحو الجنوب حيث فصل المطر الأطول نسبيًا مفيدين من المياه والمراعى التى تظهر فى مجارى الأودية المتقطعة التى تظهر عقب فصل المطر .

أما الإقليم الأخير وهو الأصغر مساحة فيمتد إلى الجنوب من الإقليم السابق ، ويعرف بالإقليم المدارى الممطر صيفًا أو الإقليم السودانى بالمعنى الصحيح ، ويسقط فيه من المطر ما يبلغ نحو ١٢٥ سم فى شهور الصيف ويقصر فيه فصل الجفاف إلى خمسة أو ستة شهور ، وهنا إقليم السفانا الطويلة ، والسفانا البستانية التى تزدهر حشائشها فى فصل المطر ، ثم تنتهى الحياة النباتية خلال خمسة شهور الجفاف من نوفمبر إلى مارس . وقد انتشرت الزراعة فى هذا الإقليم على حساب الحشائش : زراعة القطن ، والذرة ، والأرز ، والفول السودانى ، وغيرها ، وهى التى تمثل ٩٥% من الصادرات الزراعية . وتعد بلدة موندو فى جنوب شرق الإقليم مركز تسويق القطن ؛ المحصول الشتوى الرئيسى .

وكان لهذه الظروف الطبيعية أثرها فى تركز السكان فى القسم الجنوبى حيث

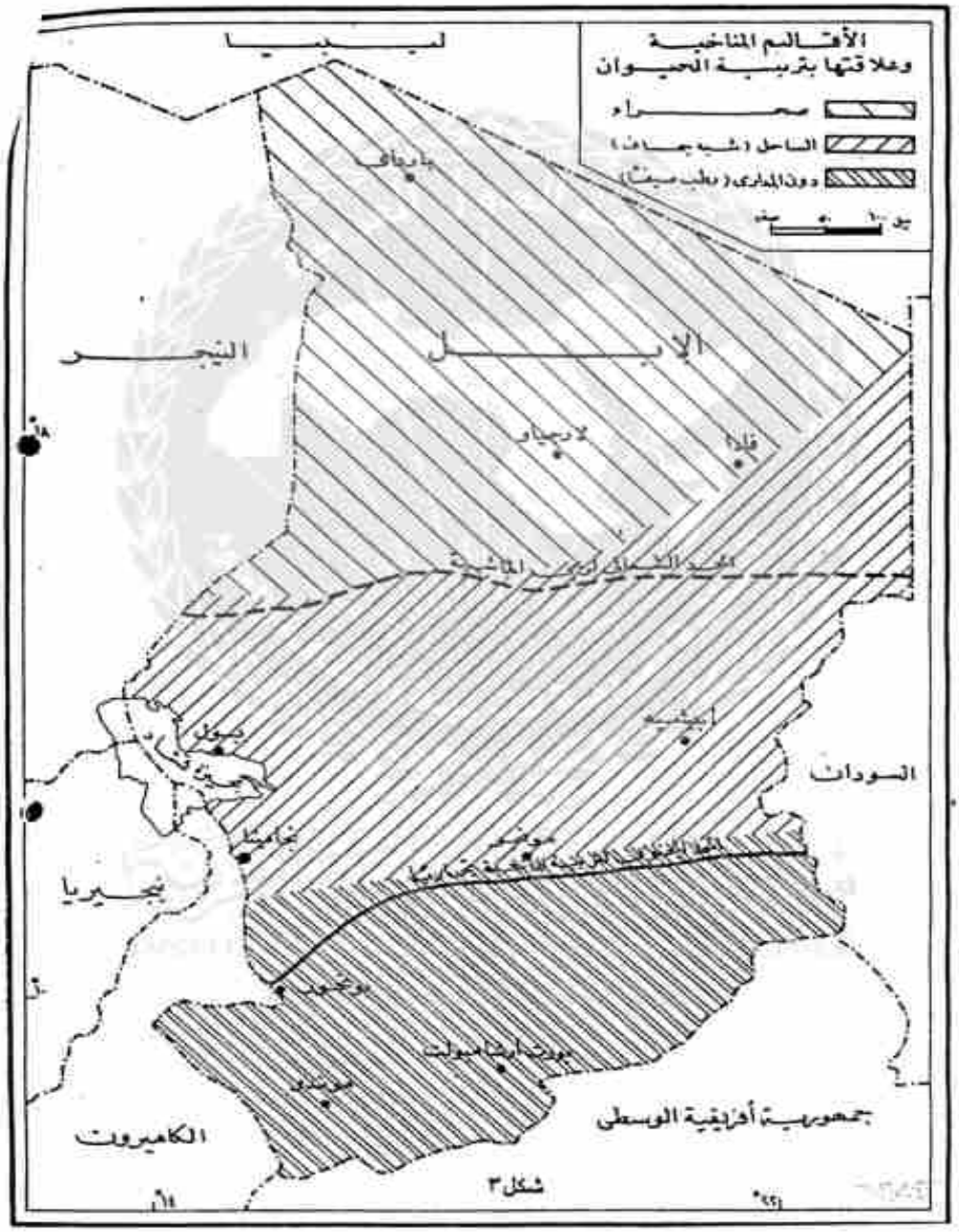

الأقاليم المناخية
وعلاقتها بتربية الحيوان
صحراء
الساحل (شبه جاف)
ليبيا
النيجر
الإبل
السودان
نيجيريا
الكاميرون
جمهورية أفريقية الوسطى

شكل ٣

المطـر الأوفر ، وهو القسم الذى لا تزيد مساحته على ١٥% من مساحة البلاد ، فى حين أنه يضم معظم الأراضى الزراعية ، وتمارس فيه أيضًا تربية الحيوان . وقد أدى هـذا إلى تجمع أكثر من نصف السكان الذين يزيدون على ٨ ملايين نسمة ، علـى عكس الإقليم الشمالى المخلخل السكان الذى يعد امتدادًا للصحراء الليبية وصحراء جنوب الجزائر وشمالى السودان .

ولا تقتصر أهمية الجنوب على هذا ، بل إن القاعدة الصناعية لتشاد يضمها هـذا الإقليـم الجـنوبى ، فى نجامينا وموندو ، حيث تتوافر بها مشروعات حكومية قائمـة على الإنتاج الزراعى ، وصناعات تجميعية للراديو ، والدراجات ، والسكر ، والبـيرة ، والسـجائر ، والمنـتجات القطنية ، والمجمع الصناعى الرئيسى فى تشاد وهـو Cotontchad ، ومصـنع السكر فى Bandar وهو يعمل من خلال مؤسسة Societe Nationale Sucriere du Chad (Sonasut)[٢] ومن ثم فإن الإقليم الجـنوبى لتشـاد يضـم المعمور التشادى ، وهو قلب تشاد الاقتصادى ، خاصة إذا عرفـنا أن البـترول ظهـر فـيها جـنوبى البحـيرة وشمالها ، كما يضم معمل تكرير البترول فى Sedeigi .

الموقع وتعمير تشاد بالسكان

ونـأتى مـرة أخـرى لبـيان أثر الموقع الجغرافى لتشاد فى تعميرها بالسكان ، فهـذه الـبوتقة تـم تعمـيرها مـن الشـمال والشمال الغربى بالجماعات الرعوية من الأمـازيج والعـرب ، ومـن الغـرب أتاها الفولانى والهوسا ، هذا فضلاً عن أولئك القادميـن من سودان وادى النيل شرقًا ، ومن الجنوب بالعناصر الإفريقية الواردة من إفريقية الوسطى ، وهو ما سيأتى ذكره فيما بعد .

وقد تدرجت حرف هذه الجماعات من الرعى الخالص والبداوة بأجلى معانيها فى الشمال ، إلى الرعى والزراعة عند أشباه البدو فى الوسط ، إلى الزراع ومربى الحيوان المستقرين فى الجنوب حيث تسمح الأمطار بالزراعة ، وهذا التقسيم الحرفى يعتبر مبسطًا أكثر التبسيط ، لأن الهجرات الناتجة عن الرعى ، فضلا عن تقلب الظروف المناخية طوال العصور ، وخاصة ظروف الجفاف الشديد والطارئ التى تصيب أكثر ما تصيب إقليم الساحل - تجبر البدو وأشباه البدو على التحرك جنوبًا حيث قدر من المطر يتيح لهم ولحيوانهم الحياة ، ومن ثم تختلط توزيعات السكان ، ففى إقليم الساحل هذا تحدث تغيرات غير دورية من الجفاف وأحيانًا تستمر دورة الجفاف عدة سنين كما حدث فى الفترات ١٩١١/ ١٩١٤ ، ١٩٦٨/١٩٧٣ ، ١٩٧٩/١٩٨٥ على التوالى ، بل كان أوائل القرن التاسع عشر فى المتوسط أشد جفافًا من الفترة الواقعة بين عامى ١٦٠٠ و ١٨٠٠ ، على الرغم من غياب فترات من الجفاف الشديد ، وباستثناء ما حلّ بحوض تشاد فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر ، فإن زيادة الرطوبة ظهرت مجددًا بين عامى ١٨٧٠ و ١٨٩٥ ، ولكن الأحوال المناخية تدهورت فى أواخر القرن التاسع عشر ، وبلغ هذا التدهور ذروته فى فترة الجفاف التى شهدتها بداية القرن العشرين[٣] .

وتعد بحيرة تشاد مرآة تعكس الظروف المناخية التى يتعرض لها هذا الإقليم من الساحل السودانى على أساس أن المغذى الرئيسى لها هو نهر شارى - لوجون ، الذى يرتفع منسوبه وينخفض تبعًا لحالة المطر ، فقد تراوح ارتفاع سطح ماء البحيرة بين ٢٨٣ مترًا عام ١٩٦٣ و٢٧٣,٦ مترًا عام ١٩٨٦ ، وصحب ذلك انكماش سطح البحيرة من ٢٥٠٠٠كم٢ إلى ٣٠٠٠كم٢ فى العامين المذكورين[٤] .

وإذا كان البعض يذهب إلى أن تدهور بورنو كان ناتجًا عن إغارات الطوارق المستمرة للسيطرة على التجارة الصحراوية ، فإن حدوث الكوارث الطبيعية والمجاعات الناتجة عن الجفاف كان له أثره أيضًا ، وهو مما أدى إلى ثورة إقليم ماندارا ، وكذلك استقلال باجرمى التى كانت تحت إدارتها . ويذكر التاريخ أنه قد حدثت سبع سنين عجاف فى عهد مای دوناما على (١٦٩٦م - ١٧١٤م) ، أعقبها عامان من المجاعات (١٧٣٦م - ١٧٤٧م) ومجاعة أخرى وصفت بأنها مجاعة شديدة الوطأة خلال حكم السلطان دوناما جانا (١٧٤٧م - ١٧٥٠م)[٥] . وكان لموقع تشاد وما ترتب عليه من تقاطع لطرق القوافل الصحراوية على أرضها فى العصور القديمة والوسطى ، ومن قبل هذه الطرق الهجرات المختلفة للقبائل ـ كان لهذا كله أثره فى أن عمرت تشاد بعناصر متعددة ، اختلط بعضها ببعض ، فهى تتفرق وتتجمع ، وإن كانت حركة السكان فى تشاد بوجه عام هى حركة البدو وأشباه البدو الذين يعيشون فى وسط وشمالى تشاد ، ذلك أن الممالك التى قامت حياتها على التجارة ، أثّر ازدهارها أو عدم ازدهارها قبل وصول الاستعمار على مدى التماسك الداخلى فى المملكة وعلى الغزوات الخارجية ، وهو ما أدى إلى عدم الاستقرار فى كثير من الأحيان ، وكان يصحب هذا نزوح من مكان إلى آخر ، ولا ننسى فى هذا المجال هجرات المسلمين من غرب إفريقية متجهين إلى الأراضى المقدسة عبر تشاد وصولاً إلى السودان والحجاز ، واستقرار بعض منهم فى تشاد[٦] ، فتحولت إلى بوتقة تنصهر فيها الجماعات ، ومن ثم تصبح تشاد إثنيًا ولغويًا واجتماعيًا أشبه بلوحة من الفسيفساء .

شعوب تشاد

البدو

التوبو ومعناه ناس التو أو ناس الجبال ، ويقدرون بنحو مائتى ألف نسمة يعيشون فى مقاطعة Bet ، وفى رأى البعض أنهم ينحدرون من أصول نيلية ، وصلوا تشاد خلال القرن السابع عشر ، واعتنقوا الإسلام فى ذلك القرن أو القرن التالى له ، وكان لهم دورهم الكبير فى تأسيس مملكة كانم ، واعتنقوا السنوسية خلال القرن التاسع عشر ، ولهم أقاربهم فى فزان وبينهم علاقات وتجارة لعدة قرون .

ويتألف التوبو من عشيرتين كبيرتين ؛ وهما الدازا التى تعيش فى مقاطعة بورقو انيدى وهى عشيرة الرئيس السابق هبرى ، والتيدا وعددها نحو ٢٠ ألف نسمة، من بين أبنائها جوكونى عويضى الرئيس السابق أيضًا ، وهم منتشرون ومبعثرون . والتيدا الذين يعتبرون أنفسهم التوبو الخلص هم الذين يختار منهم دائمًا الرئيس الروحى (derdi) وهم محبون للحرية ، حاملون للسلاح دائمًا ، وقديمًا كانوا يستعبدون غيرهم للعمل لديهم ، ويفرضون إتاوات على الجيران الضعفاء ، وهم رعاة للماعز والأغنام والإبل والخيل ، ورحلاتهم طويلة قد تستمر تسعة أشهر كل عام ، ثم يرجعون إلى قراهم يعيشون على التمر واللبن خلال فصل المطر القصير (ثلاثة شهور) .

الصحراء مسرحهم ، يتجولون بإبلهم فى شمالى تشاد والصحارى المجاورة أيضًا فى ليبيا والنيجر وأطراف السودان ، ويطلق عليهم العرب الجُرعان ، وإن كانت هذه التسمية بدأت تختفى ، ويشيرون إلى أنفسهم باسم التيدا أو الدازا ، ويعتمد هذا على ما إذا كانوا يتكلمون تيداجا Tedaga أو الدازجا Dazaga

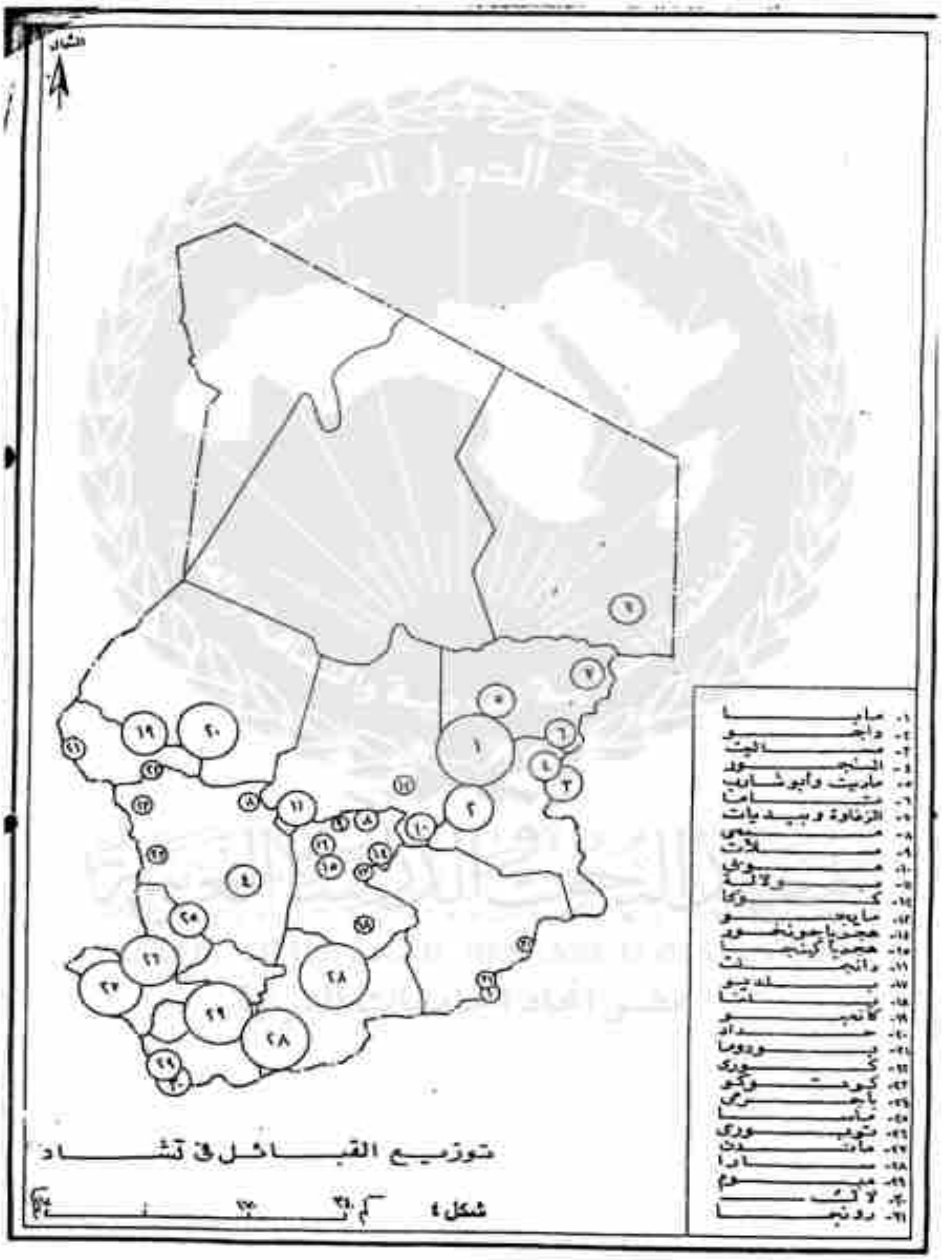
الشمال
توزيع القبائل في تشاد
شكل ٤

وهما لهجتان للغة واحدة من اللغات الصحراوية ، ويعيش التيدا الذين يمثلون نحو ١١% من السكان شمال درجة عرض ١٨ شمالاً تقريبًا ، والدازا جنوبه ، كما يعيش فى كنف التيدا نحو ٥ آلاف من الكامادجا فى بورقو مستقرين فى الواحات يفلحون الأرض ويربون الإبل[٨] .

العرب ، ويعرفون أحيانًا باسم الشوا ، وهم رعاة وأشباه رعاة متجولون بقطعانهم فى إقليم الساحل (الثلث الجنوبى) يتجهون شمالاً نحو أراضى التوبو إلى ما بعد خط ١٦ شمالاً ، لتجنب المرتفعات فى مقاطعتى وادای وجويرا ، كما لا يتعدون فى رحلاتهم جنوبًا خط عرض ١٠ شمالا إلا فى القسم الشمالى من هذا الإقليم حيث اختلطوا بالسكان المستقرين ، وقد بلغت القبائل العربية تشاد من الشرق والشمال فى القرن الرابع عشر ، واستمرت فى موجات متتابعة ، وهم يقسمون إلى : جهينة ، وحسونة ، وأولاد سليمان ، وأكبرهم عددًا جهينة نسبة إلى عبد الله الجهنى أما الحسونة فهم سلالة حسن الغربى الذى ترك شبه الجزيرة العربية وأتى تشاد من الشمال عن طريق طرابلس ، ويعيش الحسونة فى تشاد إلى الشمال من نجامينا (مقاطعتا شارى / باجرمى) .

أما أولاد سليمان فينسبون إلى سليمان الذى يقال إنه أحد أصحاب رسول الله ﷺ ، وإنه أمر بنشر الإسلام فى طرابلس ، وتحت ضغط الحكم التركى اضطر أولاد سليمان إلى الهروب جنوبًا إلى فزان حيث ما زالت لهم روابط متعددة ، ثم كانت هجرتهم بعد ذلك إلى مانجا شمال بحيرة تشاد . ويطلق عليهم أولاد سليمان القدامى تمييزًا لهم عن أولاد سليمان المحدثين الذين طاردهم الإيطاليون فلجأوا إلى فزان فى الفترة ١٩٢٨ ـ ١٩٣٠م ، ويعيشون فى مقاطعة كانم شمال مانجا بين الدازا الذين تزاوجوا منهم .

وجميع العرب فى تشاد باستثناء أولاد سليمان المحدثين كانوا تحت سلطة الإمارات المختلفة التى كانت موجودة فى العصور الوسطى من وادای إلى كانم، يدفعون الضرائب للسلطة المهيمنة، وإذا ما وجدوا ضغطا أو لم يستريحوا تحركوا إلى أماكن أخرى يحسون أنها أكثر ملاءمة لهم، ولابد أن تحدث انقسامات وتشققات فى القبيلة الواحدة بطبيعة الحال أثناء الحركة[٨] .

ويعيش معظم العرب التشاديين فى نطاق الوسط الجنوبى (مملكة بورنو / كانم سابقا) ووادای وباجرمى، ويقدر عددهم بنحو ١,٥ مليون نسمة ومعظمهم من الرعاة والرعاة أشباه المستقرين، ومنهم من تحول إلى الرعى . وقد احتفظوا بثقافتهم ودينهم ولغتهم، ولكنهم مع ذلك اختلطوا بالسكان ولم يعيشوا فى عزلة عن جيرانهم . ويمتلك العرب قدرا عظيمًا من الثروة الحيوانية فى تشاد يربون الإبل والخيل والماشية والماعز والأغنام ومعظم حيوانهم جنوب درجة عرض ١٤ من الأبقار، من نوع الزيبو القصير القرون، والبقر هنا أكثر من الإبل لتغير الظروف المناخية . والرعاة من العرب يقطعون آلاف الكيلومترات كل عام بحثا عن المرعى، وهم فى الوقت نفسه يمثلون نحو ٧٠% من سكان نجامينا ويسودون قطاع الأعمال[٩] ، ومن ثم فنشاطهم وتأثيرهم يفوق بكثير نسبتهم العددية، كما أن اللغة العربية أكثر اللغات انتشارًا .

وعرب تشاد مسلمون ينتمون إلى الطريقة التيجانية، فيما عدا أولاد سليمان وبعض القطاعات العربية فى وادای الذين ينتمون إلى السنوسية .

الفولا أو الفولانى : يعيش شعب الفولانى فى نطاق الساحل فى إفريقية الغربية بعامة، غير أن تدفقهم بأعداد كبيرة كان منذ أواخر القرن التاسع عشر وعشرينيات القرن العشرين . منهم البدو الرعاة، ومنهم الزراع المستقرون .

ويعيشون دائمًا مجتمعًا مستقلاً وسط الجماعات الأخرى ، وقدر عددهم بنحو ٣٢ ألف نسمة فى منتصف العشرينيات ، ويعيش معظمهم فى كانم وجنوب البطحاء وشمال باجرمى حيث يرعون أبقار الزبيو والأغنام وأحيانا الإبل ، كما أن منهم زراعا أنصاف مستقرين ، وفى المدن يعملون بالتجارة وهم مسلمون معتزون بإسلامهم ، ويعمل عدد منهم معلمين للقرآن .

وينتمى إلى الفولانى عرقيا ولغويا المبرورو M. Broro الرعاة ، وهم فى حركة دائمة لا يستقرون أكثر من ثلاثة أيام فى مكان ما ، وتقتصر حركتهم على الإقليم الواقع بين درجتى ١٠ ، ١٥ شمالا فى غربى تشاد ، ويستقرون فى فصل الجفاف فى إقليم بونجور فى مقاطعة مايوكيبى ، ويتحركون مع الأمطار المبكرة إلى الإقليم الواقع شمال بحيرة تشاد ، وهم محافظون على تقاليدهم ، ولا يختلطون ، ولا يتزوجون إلا من الفولانى . وللفولانى أثرهم الكبير فى نشر الإسلام فى إفريقية الغربية بعامة ، ولا يمكن لمن يعرض لتاريخ الإسلام هناك إلا أن يذكر الفولانى وحركة الجهاد الإسلامى التى عمت الإقليم خاصة فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وحركة المهدية فى السودان فى أواخر ذلك القرن ، التى أدت إلى هجرات متتابعة من الفولانى نحو السودان .

وتدور فكرة المهدية حول أنه سيأتى فى آخر الزمان المهدى أو المخلص المنتظر فيملأ الأرض عدلا ومساواة بعد أن ملئت ظلمًا وجورًا ، ولم يأت ذكر المهدى فى القرآن ولا الحديث سوى فى بعض ما ذكره الترمذى وابن ماجة ، ولكن على العموم انتشرت الفكرة على المستوى الشعبى ، وأصبحنا نسمع بها فى التاريخ الإسلامى كلما حدث تدهور فى الأوضاع الدينية أو السياسية ، فيعتقد الناس أن المهدى سيظهر لإصلاح حال الأمة وإعادتها إلى الطريق الصحيح ولو

لـزم الأمـر بالقوة ، وهى قريبة من فكرة المسيح المنتظر عند اليهود والمسيحيين . وقد تبنى الفكر الشيعى هذه الفكرة بعد اغتصاب الأمويين الخلافة من على وبنيه ، ولكـن سـرعان ما انتشرت عند السنة . وهى عند الشيعة مرتبطة بالإمام المعصوم ، وأنه لابد أن يكون من أهل بيت رسول الله ﷺ ، ولكن المهدى عند السنة ليس إلا مصـلحًا دينـيًا يعيد حال الأمة إلى ما كانت عليه فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين من نقاء Reformist movement .

وفـى الـنطاق الـسـودانى الذى يعنينا تظهر الفكرة بمفهوم السنة ، وقد تمثلت حـركات الإصـلاح الدينى فـى هـذا الـنطاق فـى جهاد الفولانى فى أوائل القرن التاسـع عشـر ، ومهديـة السـودان فـى آخـره* . ومـن هـنا كان القول بأن مهدية السـودان قـد تأثـرت بجهـاد الفولانى ، وكانت سببا فى قيامها ، وأن هذه الأخيرة بحثت عن الدعم والتوسع خارج السودان بصفة رئيسية فى حوض النيجر وتشاد .

وكـان تأثـير إمبراطورية سكوتو على مهدية السودان تأثيرا فكريا ، فقد كان الشـيخ عـثمان وولـده محمـد بللـو وأخوه عبد الله يجيدون العربية ولهم معارف واسـعة فى العلوم الإسلامية ، وفى كتبه التى بلغت ٢٥٨ كتابا ما بين كبير الحجم وصـغيره ، نجـد مـادة غزيـرة تتعلق بالمهدى المنتظر ، وإن كان الشيخ عثمان قد أنكـر بتاتًا أنه المهدى المنتظر ، لأن من شروط المهدى أن يكون من سلالة أهل البيـت ، والشـيخ عـثمان لـيس كذلـك ، ومـن شروطه أيضا أن يكون قد ولد فى المدينـة ، والشيخ عثمان ولد فى ماراتا ، ورغم أن الشيخ نفى عن نفسه هذا ، فقد

---

* ارتبط الجهاد الإسلامى فى النطاق السودانى بأسماء الشيخ عثمان دان فوديوا (١٨١٧م)، فى إقليم الهوسا ، والشيخ سيكو أحمد ، فى ماسينا (١٨٤٣م) ، والحاج عمر (١٨٦٤م) ، فى إقليم البمبارا .

روَّج لنبوة المهدى[١٠] .

والنقطة الرئيسية فى هذه النبوة لدى الفولانى أن المهدى سوف يظهر فى الشرق ، وأنه سيسبق ظهوره فترة من الجفاف والحروب الأهلية والاضطرابات فى إقليمى المغرب ، وتشاد / النيجر ، وتكون النتيجة الهجرة والنزوح بأعداد غفيرة إلى وادى النيل والحجاز .

وقد حدث هذا مبكرًا منذ أيام أمير المؤمنين أبى بكر أتيكو (١٨٣٧م - ١٨٤٢م) نظرا لحدوث اضطرابات فى إمارة سكوتو ، ومن ثم بدأت الجماعات تتحرك تلو الجماعات مغادرة الإمارة متجهة نحو الشرق إلى وادى النيل متوقعين مقابلة المهدى المنتظر ، وهو مما سبب كثيرا من الفوضى والهرج ، ودعا السلطان إلى إصدار بيان «بأن ميعاد الهجرة والخروج إلى المهدى لم يحن بعد ما دام هناك أناس صالحون يعيشون بيننا» .

والظاهر أنه كلما حدثت اضطرابات ، خاصة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، تحركت هجرات بأعداد كبيرة من إمارة سكوتو نحو الشرق إلى السودان والحجاز[١١] .

وكانت آخر هجرة لهم لهذا السبب بعد انتصار الإنجليز فى نيجيريا ودخولهم شمالى البلاد حيث إمارة سكوتو ، وكانت هناك دعوة لمغادرة الإمارة بعد أن جاءها غير المؤمنين (١٩٠٢م - ١٩٠٣م) ، وكان يتقدمهم سلطانهم أتاهيرر Attahirer الذى تجمع معه خلق كثير فى بورمى التابعة لإمارة جومى ، وكانت هذه الإمارة تحت زعامة المعلم عبد الله وهو فولانى من أتباع مهدية السودان[١٢] .

أشباه المستقرين

يمثل المابا Maba والعناصر الأخرى التى ينتمى إليها العنصر الرئيسى الثالث فى تشاد (٢٢٠ ألف نسمة) ، ويحتلون مساحة واسعة فى مقاطعة واداى وأجزاء من بيليت ، وأكبر تركز لهم حول أبيشيه ، ثم يقل تركزهم ويزيد اختلاطهم بغيرهم حتى يصلوا إلى خط العرض التاسع عشر فى الغرب وحدود السودان فى الشرق ، وقد طبعوا جميع السكان الذين وصلوا إلى إقليمهم حتى الحكام العرب الذين تولوا السلطة فى الإقليم بطابعهم ، وكانوا يتخذون دائمًا إحدى زوجاتهم من المابا ، ومن ثم لا يوجد من كان فى وسط واداى إلا ويمت إليهم بقرابة ، ولهم فروع عدة ولكنهم يتكلمون بورا مابانج Bora Mabange بلهجة Maba ، وهى فرع من اللغات النيلية الصحراوية ، ولا يعرف سكان المرتفعات سوى هذه اللغة وإن كان سكان السهول يتكلمون اللغة العربية إلى جانب تلك اللغة ، وهم يحيون حياة رعى وزراعة ولا غرو فهم يعيشون فى الإقليم الانتقالى بين الجفاف والرطوبة ، بين حياة الرحلة والانتقال . ومن الطريف أنهم حين وجدوا أنفسهم فى الماضى يمثلون أرستقراطية . أنفوا العمل اليدوى ، واستخدموا غيرهم لهذا الغرض ، وهم مسلمون يُرجِعون أصولهم إلى السودان والمغرب[١٣] .

الداجو : أول سادة لإقليم واداى ، ينقسمون إلى مجموعتين رئيسيتين إحداهما جنوبى واداى فى ام دام ، والأخرى فى سهول جويرا وجبال أبو قلقان على درجة عرض ١٩ ومركزها قوز البيضاء ، ويتبادلون الخدمات مع عرب المسيرية فى السودان حين يعبرون الحدود ، وقد اعتنقوا الإسلام ويتكلمون العربية.

المساليت : يقيمون إلى الشرق من إقليم المابا ويتوغلون فى الحدود

السودانية بين درجتى عرض ١٣ و ١٤ شمالا . ويعيش المساليت مستقرين بالقرب من القسم الأكبر منهم الذى يعيش فى السودان ، ويتكلمون لهجة خاصة بهم ، ومن المحتمل أنها تنتمى إلى لغة بورا مابانج . يبنون مساكنهم فوق التلال ، وهم مسلمون ، وهناك أيضًا أسونجورى Asongori ، والمراريت ، والتاما .

الزغاوة والبدايات : ومواطنهم بين درجتى عرض ١٥ و ١٦ شمالا على وجه التقريب ، وكانوا ينظمون أنفسهم على هيئة إمارات ، ويعتقد أن الأسرة الحاكمة فيها ترجع إلى الداجو . وهم من أشباه البدو يجمعون بين الزراعة ورعى الإبل ، يتكلمون لغتهم الصحراوية ولكنهم يجيدون العربية ، ولهم دور كبير فى تاريخ تشاد واقتصادها فى العصور الوسطى ؛ لأنهم كانوا مسئولين بدرجة كبيرة عن تأمين التجارة والحركة على الطرق الصحراوية ، فضلاً عن قيامهم بالتجارة ذاتها ، فهم صنهاجة القسم الشرقى من الصحراء الغربية ، ولهم فرع يعيش فى الجنوب بالقرب من أبيشيه ، يتصلون بأقربائهم فى دارفور ، كما أنهم على صلات بقبيلة المحاميد العربية (فرع من جهينة) ، يتقابلون معا أثناء تحركاتهم السنوية .

وقد سبق أن ذكرنا أنه كلما حدثت اضطرابات فى النطاق السودانى من غربى إفريقية خاصة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر كانت تتدفق أعداد كبيرة من إمبراطورية سكوتو إلى السودان والحجاز ، ولا تأتى سيرة هذه الهجرات إلا ويذكر الزغاوة الذين كانوا يسيطرون ويتحكمون فى الحركة بين النيجر وتشاد والسودان ، ويقول عنهم اليعقوبى :

«فيما يختص بالسودانيين الذين يتجهون إلى الشرق وكانوا يعبرون مسافات كبيرة وممالك متعددة ؛ أول هذه الممالك هى مملكة الزغاوة الذين يستقرون فى مكان يطلق عليه كانم» . ويستمر اليعقوبى فى قوله بأن «مملكة الزغاوة يقال إنها

أكبر الممالك فى إقليم السودان ، فإلى الشرق منها هى مملكة النوبا (جنوب مصر وشمال السودان) ، بين المملكتين مسافة تقدر بنحو ١٠ أيام . والزغاوة قبائل متعددة ، وطول بلادهم نحو ١٥ يوما » . ولا شك أن ليون الإفريقى يشير إلى الزغاوة حين يتكلم عن الزنجانى الذين يطلق عليهم أحيانًا الجرعان ، ومن ثم يمكن القول ومن واقع الكتابات عنهم إن الزغاوة خلال العصور الوسطى كانوا يسودون جميع الأراضى بين بحيرة تشاد ودارفور وشمالا إلى صحراء شمالى السودان ، وكانوا يتحكمون فى طرق القوافل التى تصل إلى النوبة وطرابلس ومصر . والأمر الذى يسترعى النظر فى كل من كتب عن هذه المنطقة فى العصور الوسطى أن الاتصالات والحركة كانت مستمرة على طول الطرق بين النيجر وتشاد والسودان ، وربما لأبعد من هذا بكثير خلال العصور القديمة ، وقد كانت دارفور فى أواخر القرن التاسع عشر جزءا من إقليم النيجر وتشاد ، فالسلطان بللو كان يعد دارفور ضمن إقليم التكرور[١٤] .

الكانمبو : يعيش ثلثا الكانمبو (١٥٠ ألفًا) فى مقاطعة كانم ، كما ينتشرون بكثافة خارج مقاطعتهم فى مقاطعتى لاك (البحيرة) وشارى باجرمى ، ويعدون ماديجورى عاصمة لهم ، كما أنهم على صلة وثيقة بكانورى شمالى نيجيريا ، فالكانورى المهاجرون نحو الشرق كان لابد لهم أن يمروا بأراضى الكانمبو . وهم مزارعون ماهرون ، فضلاً عن استغلالهم لمناجم النترون الواقعة فى جنوب غربى المقاطعة ، ويتكلمون لهجة خاصة من اللغات الصحراوية ، ولكنهم يجيدون العربية ، بل أحيانًا يكتبون لغتهم بالاستعانة بالأبجدية العربية ، وتعد لغة الكانمبو لغة تفاهم مشترك فى كل مقاطعة كانمبو .

هذا ومن أشباه البدو أيضًا : سانجورى ، ومراريت ، وداموة شارب ، والتاما ،

والمسالات ، وموبى ، وبيلالا ، وهوجارى ، وحداد ، وباجرمى ، وبودوما ، وكورى ، وكوتكو[١٥] .

المستقرون

أكبر المجموعات السكانية تعيش فى النطاق الجنوبى وتبلغ نحو ثلث سكان تشاد ، ويظهر هؤلاء بصفة خاصة فى محافظة شارى الأوسط ولوجون الشرقية ولوجون الغربية وتاند جيل ، كما يمتدون إلى جمهورية إفريقية الوسطى . يتألفون من ١٢ عشيرة (جامباى) أكبرها : مناى ، وجولاى ، ومدجينجاى (السارا الخلص) والكابا ، ونيلم ، والعابر داين ماجانا . والسارا طبقا لتقسيم جرينبرج ليسوا من البانتو بل هم نيليون استقروا فى تشاد فى القرن السادس عشر ، وقد كان امتدادهم أكثر نحو الشمال ، ثم هاجروا نحو الجنوب تحت ضغط العرب فى الشمال . والوصف الفرنسى لهم هو La belle race أى الشعب الجميل ، ولونهم بنى داكن . وكان هناك العهد والأمان الذى بمقتضاه يقوم السارا بتقديم عدد من الرقيق فى نظير عدم الإغارة على أراضيهم ، وهم يتكلمون لغة السارا التى تعد لغة تفاهم مشترك فى جنوبى تشاد ، وتعد موندو عاصمتهم المحلية ، وكان الرئيس الأسبق لتشاد تومبالباى من أبناء السارا ، وهم مهرة فى الزراعة يقومون بزراعة القطن إلى جانب محاصيلهم الغذائية وكما كان السارا فى فترة الاحتلال الفرنسى يمثلون العمود الفقرى للفرقة الفرنسية فى إفريقية الاستوائية الفرنسية ، وهم يحتفظون بكثير من معتقداتهم الدينية التقليدية ، ودخلت المسيحية أراضيهم لأن القوات الفرنسية دخلت تشاد من الجنوب ، وهناك أقلية كبيرة الحجم نسبيا اعتنقت المسيحية ، ثلثاها من الرومان الكاثوليك ، والباقى من البروتستانت . ومن الجماعات الجنوبية المستقرة أيضا نجد الماسا / التوبورى ، والموندات ، والمبوم ،

ولاكا ، والرونجا[١٦] .

لسان تشاد أم ألسنتها ؟

لو أنك كنت أدرت مؤشر المذياع على إذاعة تشاد عام ١٩٧٢م وقضيت يوما بأكمله مستمعا إلى نشرات الأخبار ستجد أنه يذيعها خمس مرات باللغة الفرنسية ، وثلاث مرات باللغة العربية ، وثلاث مرات بلغة سارا ، ومرة بلغات كل من الجرعان ، والكانمبو ، والتوبو ، والموندان ، والفولبى .

يرى معظم الأنثربولوجيين أن هناك ١١٠ لغة يتكلمها أبناء تشاد ، فى نحو ٢٠٠ مجموعة عرقية ، ويبدو الآن أن هناك اتفاقًا على أن هناك ٨٥ لغة يمكن تمييزها ، وأن ١٪ أو نحو ذلك منها ما زالت غير مميزة ، وعلى العموم إذا صح هذا ، فمعناه أن تصبح لكل مجموعة لغتها الخاصة ، وإن كان البعض يخلط فيطلق لفظ لغات على اللهجات . وعلى العموم فهذه قضية علماء اللغات الذين يهتمون بتشاد ، فيعكفون على إعطاء التفاصيل ، وإن كانت الصورة العامة هى وضع اللغات التشادية تحت أربع مجموعات ؛ هى :

مجموعة اللغات السودانية : وهى التى يتكلمها جماعات السارا ، والتوبورى Tupuri ، وبنانا ، ومواندانج ، وباجرمى ، وبوليا ، وورونجا .

مجموعة اللغات النيلية : وتتكلمها الجماعات المتعربة مثل : واداى ، وكودوى ، ومالانج ، ومادبا ، ودبا ، وابيسا ، وأبوسيميو ، وموبى ، وكاريو ، ومسميح ، وياباليا ، وديونجور ، وسابا ، ويالنا ، وتنجور ، والتوروم ، ودكر ، ودجما ، ومساليت ، وليزى[١٧] .

المجموعة العربية : وتشمل الحسونة ، .

المجموعة الصحراوية : وتشمل الكانمبو ، والتوربو .

وهنا نستدرك ونقول : إذا كانت تشاد تضم الأفارقة العرب والأفارقة غير العرب ، فإن العروبة قد اجتاحتها أولا نتيجة الهجرات العربية التى ترجع أصولها إلى شبه الجزيرة العربية ، وثانيا نتيجة التأثير البيولوجى ، وذلك من خلال تزاوج العرب بالأفارقة ، ولا إخال إلا أن هذا حدث على نطاق كبير ، وثالثًا بالتأثير اللغوى باستخدام اللغة العربية لغة تخاطب وتعامل ، أو عن طريق تطعيم اللغات المحلية بألفاظ وكلمات عربية[١٨] ، وربما صح القول مع كاتب مثل الجاحظ بأن الشخص يعد عربيا حتى ولو انحدر من أصل أعجمى ، ما دام يتخذ العربية لغة له ، وفى هذا الصدد يقول : «وقد جعل الله إسماعيل عليه السلام وهو ابن أعجميين عربيا لأن الله تعالى فتق لسانه بالعربية المبينة» .

إذن فالتأثير العربى المتعلق باللغة لا يقتصر على ذوى الأصول العربية من شبه الجزيرة ، خاصة أن العرب حين هاجروا كانوا رعاة أى أهل حركة ؛ حركة الإبل فى شمال تشاد ، وحركة البقر فى وسط تشاد ، حيث تحولوا إلى رعاة بقر نظرا لأن بيئة القسم الجنوبى لا تلائم حياة الإبل من حيث ارتفاع درجة الرطوبة ، تمامًا كما حدث فى سودان وادى النيل ، حتى أطلق لفظ « البقارة » على العرب الذين تركوا رعى الإبل فى غربى السودان ، وأخيرًا وليس آخرًا نشاطهم الاقتصادى الواسع الذى يقول عنه الباحثون (الأجانب) إنه يتعدى حجمهم .

وانتقلت التأثيرات العربية لغة أو دينا إلى الجنوب ، وتمثلت فى أن الرعاة أصبحوا يزرعون إلى جانب رعيهم ، والزراع أصبحوا يربون الماشية ، وأدى هذا كله إلى ظهور لكنة[١٩] ، يطلق عليها توركو Turku وهى نوع من العربية Pidgin Arab تعد لغة تفاهم مشترك فى كل وسط تشاد وجنوبه ، ويطلق عليها

العربية التشادية[٢٠] .

وعلى الرغم من أن الاستعمار الفرنسى اختار لغته لتكون اللغة الرسمية لتشاد ، فإن نسبة من يرطن بالفرنسية ويكتبها نسبة ضئيلة للغاية ، وهى لغة الذين تعلموا فى مدارس البعثات التبشيرية كما سنذكر فيما بعد ، وتصبح اللغة العربية هى لغة الغالبية وأكاد أقول لغة الكافة من أبناء تشاد ، ومع ذلك ونتيجة للإرث الاستعمارى الطويل لم تدخل اللغة العربية لغة رسمية ثانية إلا فى الثمانينيات .

تشاد الحديقة الخلفية لإفريقية الاستوائية الفرنسية لموقعها المتطرف وقلة مواردها :

من المعروف أنه قبل وصول الفرنسيين إلى تشاد كانت هناك مشيخات ثم تطورت المشيخات إلى ممالك فى كل نطاق السودان ، وكان من أهمها بالنسبة لموضوعنا : كانم ، وبورنو ، وباجرمى ، ووادى . وكان أساس قوة هذه الممالك حركة التجارة ، وتوقف ازدهار هذه الممالك وعدم ازدهارها على مدى التماسك الداخلى فى المملكة ، كما توقف على الغزوات الخارجية ، وهو مما أدى إلى حالة عدم استقرار مستمرة . وقد تفكك التكامل بين مملكتى بورنو وباجرمى عندما وصل الفرنسيون فى أواخر القرن التاسع عشر ، وقوبل التقدم الفرنسى بمقاومة من مملكة واداى ، فى حين لم يعدّ قادة بورنو وباجرمى الفرنسيين غزاة ، بل عدّوهم بمثابة عنصر توازن ضد واداى التى كانت تهددهم .

وكانت مشاركة التشاديين فى الإدارة الفرنسية هامشية وضئيلة ، بل ظلت المتطلبات التعليمية لهذا الإسهام تكاد تكون معدومة حتى عام ١٩٥٥م[٢١] .

وإذا ذكر الشمال والوسط ذكر السلاطين والرؤساء المحليون . ولم تكن

هناك سياسة فرنسية موحدة تجاههم حتى عام ١٩٢٠م، وإن كانت السياسة العامة التى اتبعت أن يظل السلاطين والمشايخ يقومون على إدارة رعاياهم أحيانا تحت الإدارة الفرنسية إذا كانوا قريبين من مراكز الإدارة .

وعلى الرغم من أن السياسة الفرنسية بوجه عام كانت تهدف إلى تقليص سلطة الرؤساء المحليين ؛ فإنها اعتمدت فى تشاد على البناء الإدارى التقليدى بدرجة كبيرة، وكان هذا بصفة خاصة فى شمالى البلاد حيث يشغل البدو معظمها، وكانت فى الوقت نفسه بعيدة بعدا كبيرا عن مراكز الإدارة الفرنسية فى الجنوب[٢٢].

وإذا كانت المناطق الجنوبية قد خضعت تماما للسيطرة الفرنسية فإن القسم الأوسط لم تتم السيطرة عليه رسميا إلا فى عام ١٩٢٤م، أما القسم الشمالى فقد ظل يمثل إزعاجا مستمرا ، وكانت عملية السيطرة الفعلية عليه عملية ضعيفة ، واقتصرت الإدارة من الناحية العملية على الحضر ومناطق المشروعات الزراعية الإجبارية فى جنوبى البلاد . هذا وقد تمت إدارة تشاد بعد عام ١٩٢٠م بوصفها إقليما داخل الاتحاد الفيدرالى لإفريقية الاستوائية الفرنسية ، ولكن الاهتمام الفرنسى كان أكبر بأجزاء أخرى من الاتحاد كالكمرون وجابون بسبب وفرة مواردهما الطبيعية نسبيا عن تشاد .

وقد وضعت مسئولية الإدارة فى تشاد مع جابون ، وأوبانجى شارى ، والكنغو الأوسط تحت إمرة حاكم عام مركزه برازافيل ليكون الاتحاد الفيدرالى لإفريقية الاستوائية Feder. of French Equat. AF. (AEA: AF. Equatovial Francaise). وقد تشكل الاتحاد الفيدرالى لإفريقية الاستوائية على غرار الاتحاد الفيدرالى الفرنسى لإفريقية الغربية ، ولم يؤخذ فى الحسبان الاختلاف بين الإقليمين[٢٢] . ثم ما لبثت أن أخذت وضعها بوصفها مستعمرة عام ١٩٢٠م .

وكان الحاكم العام للاتحاد يُعين بواسطة الحكومة الفرنسية ، وله سلطات إدارية واسعة على الاتحاد فيما يختص بالخدمات المدنية ، والحربية ، والقضائية ، والاتصالات مع وزير المستعمرات ، وإلى جانب اختصاصاته من حيث الأمن الداخلى والدفاع الخارجى هو المسئول عن الأمور الاقتصادية والمالية داخل الاتحاد . وتحت قيادة الحاكم العام ، كان هناك أربعة نواب ، فى كل مستعمرة واحد منهم .

هذا ويعاون الحاكم العام مجلس إدارى Adminis. Counsil . وكان البناء الإدارى فى كل مستعمرة من المستعمرات الأربع نسخة طبق الأصل من البناء فى برازافيل ، من حيث وجود السكرتير العام ومجلس استشارى . وعلى الرغم من أن نواب الحاكم العام للاتحاد لهم الحق فى إدارة ميزانيتهم كما هو الحال فى بقية المستعمرات ، فقد كان هناك تحكم كامل من الحكومة المركزية فى برازفيل ، حتى تحول حكام المستعمرات فى الثلاثينيات إلى مجرد مندوبين عن الحاكم العام فى تنفيذ تعليمات برازفيل . وعلى الرغم من أن الحكم العسكرى تحول إلى حكم مدنى وحدثت تغيرات فى الحدود وأسماء الأماكن وحجم الوحدات الإدراية ، فإن قبضة برازفيل ظلت قوية على المستعمرات الأربع ، ولم تظهر اللامركزية حتى الحرب العالمية الثانية[٢٣] .

وأعطيت صلاحيات واسعة لحاكم تشاد للقيام بوضع سياسة محلية أكثر مما أعطى لحكام المستعمرات الأخرى فى الاتحاد ، وذلك لأن الحاكم العام فى برازافيل كان مشغولا بصفة رئيسية بتنمية خط السكك الحديدية الذى يصل إلى المحيط ، فضلاً عن العوائد الناتجة عن استغلال المستعمرات الرئيسية ، فهى بالطبع أهم من الشئون الإدارية فى تشاد ، أى أن تشاد كانت فى الحديقة الخلفية

backyard بالنسبة لاتحاد إفريقية الاستوائية الفرنسية . وبعد الحرب العالمية الثانية وطبقا لدستور ١٩٤٦م أصبحت تشاد ومستعمرات الاتحاد الأخرى ، أقاليم فرنسية فيما وراء البحار Overseas Territories of France ، وأصبح كل المواطنين رعايا فرنسيين ، وأصبح كل قطر له الحق فى انتخاب مجلس Assembly له سلطات محدودة ، ينتخب بدوره ممثلين عنه لمجلس فرنسى عام لكل أقطار الاتحاد . وظل هذا الوضع مع تغيرات بسيطة حتى عام ١٩٥٧م . كما أصبح لكل إقليم الحق فى انتخاب ممثلين فى الأجهزة النيابية الفرنسية بما فى ذلك المجلس الوطنى National Assembly ، ومجلس الجمهورية Council of the Rep.، ومجلس الاتحاد الفرنسى French Union ، ومع ذلك لم يحدث تغير فى تسلسل السلطة ، فكل القرارات تصدر من باريس . وظلت فرنسا تعامل اتحاد إفريقية الاستوائية ، واتحاد غرب إفريقية الفرنسى كأنهما شىء واحد على الرغم من الاختلافات ، ولم تكن هناك أى محاولات لتدريب التشاديين على الخدمة المدنية حتى عام ١٩٥٥م ، حينما أرسل البعض إلى فرنسا للتدريب الإدارى ليعينوا بعد ذلك بعقود ، واستمر الاعتماد على الفرنسيين للوظائف الإدارية والفنية حتى الاستقلال[٢٤] .

كان التوسع الفرنسى فى تشاد جزءاً من عملية التوسع الأولى فى ذلك الحين ، فقد كان السباق على إقامة المحطات التجارية ومحطات التزويد بالوقود على طول ساحل جابون خلال أربعينيات وخمسينيات القرن التاسع عشر ، كما كان هناك بعض الاكتشافات فى الستينيات والسبعينيات من ذلك القرن . وزاد

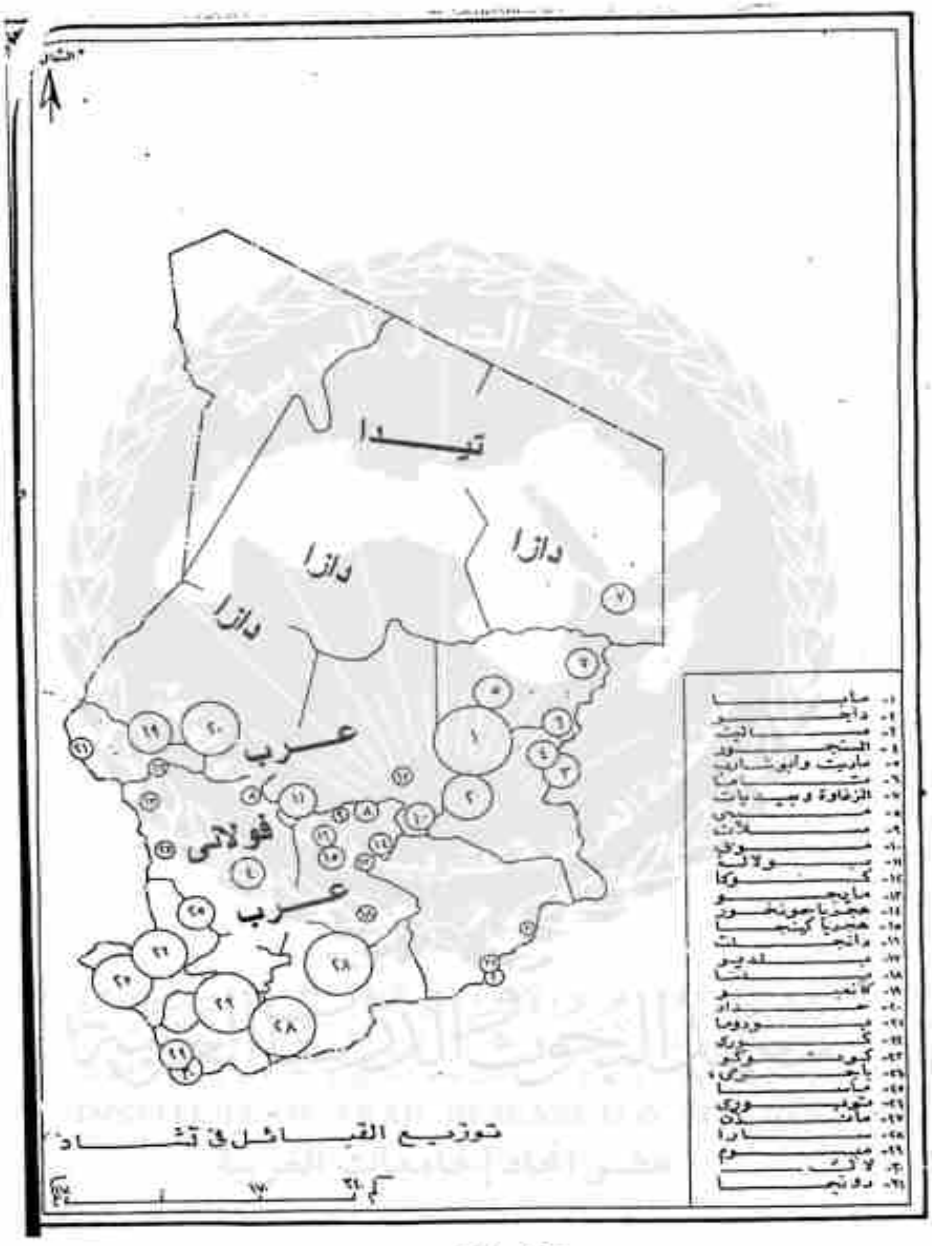

شكل (٥)

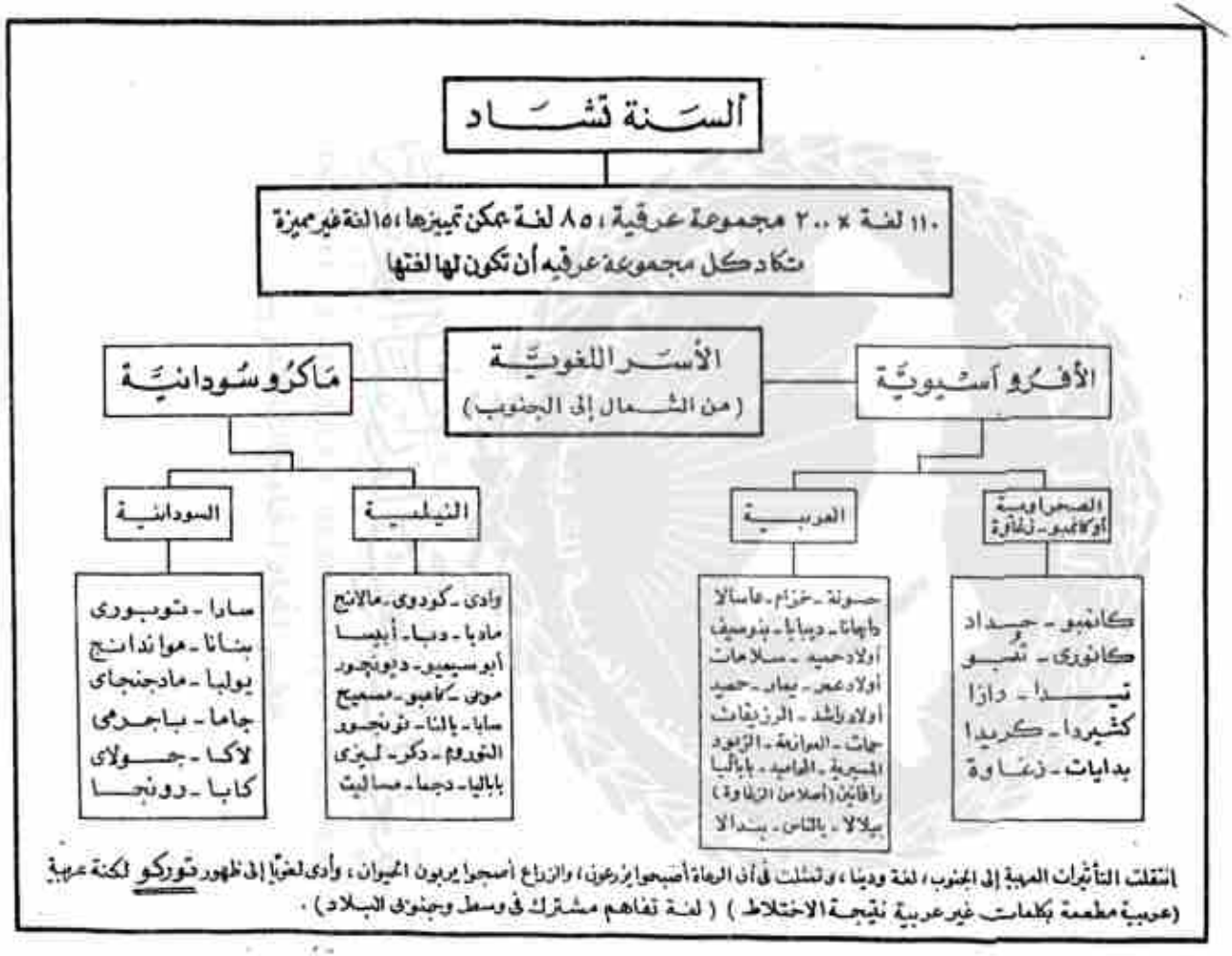

انتقلت التأثيرات العربية إلى الجنوب ، لغة ودينا ، وتمثلت فى أن الرعاة أصبحوا يزرعون ، والزراع أصبحوا يربون الحيوان ، وأدى لغويا إلى ظهور تورکو لكنة عربية (عربية مطعمة بكلمات غير عربية نتيجة الاختلاط) (لغة تفاهم مشترك فى وسط وجنوبى البلاد) .

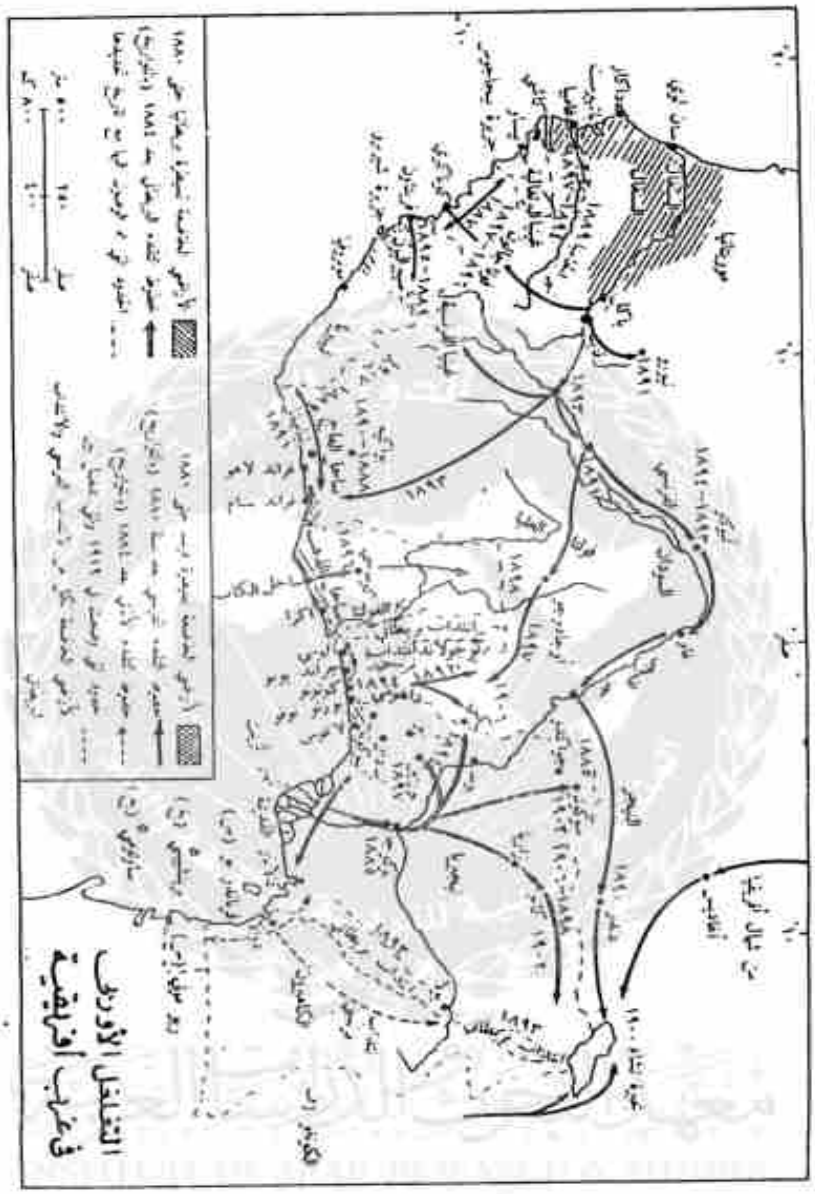

شكل (٧)

الاهتمام بالحركة الاستعمارية بعد أن أشارت التقارير إلى العاج والمطاط الذى يمكن الحصول عليه بوفرة .

ولم يقم مؤتمر برلين (١٨٨٤م - ١٨٨٥م) ـ الذى دعا إلى تسوية النزاعات وادعاءات الدول الأوربية ـ بتهدئة الأحوال ، بل عمل على إشعال المنافسة بين القوى الأوربية كموجات جديدة من المنافسة بين القوى الاستعمارية ، وبدأ الاعتراف بمناطق النفوذ على أساس الوجود العسكرى ، وألغيت تقريبًا سياسة حرية التجارة التى نادوا بها سابقًا ، ثم كانت الخطوة التالية مرتبطة بظهور قناة السويس التى كان من نتائجها قلة الاهتمام بصيانة محطات الوقود ، وانتهاء الأرباح الناتجة عن تجارة الرقيق ، كما كانت الإشاعات عن ثروات المناطق الداخلية عامل جذب للتوغل فى بطن القارة .

ادعى الفرنسيون عام ١٨٨٧م أن الإقليم الواقع شمال نهر أوبانجى هو منطقة نفوذ فرنسى ، وكان التوسع الفرنسى حينذاك تحت قيادة Sovorgan de Braza الذى كان يخطط لإقامة إمبراطورية تضم كل غرب إفريقية التى تقع تحت النفوذ الفرنسى مع الجزائر ، مع المنطقة الواقعة شمال نهر الكنغو ، ومن ثم تعد تشاد فى مركز هذا الإقليم أى واسطة العقد . وبالفعل احتلت القوات الفرنسية إقليم أوبانجى شارى عام ١٨٩٩م ، وأقامت لها مركزا عسكريًا فى بانجى Bangui وكانت محاولات التقدم نحو الشمال الغربى أو الشمال الشرقى معناها الاصطدام بالمصالح البريطانية والألمانية ، ومن ثم اضطرت فرنسا عام ١٨٩٠م إلى الاعتراف بالمصالح البريطانية والألمانية والاقتصار فى توسعها على الشواطئ الشرقية لبحيرة تشاد ، وأرسل الفرنسيون بعثتين بين عامى ١٨٩٠م و١٨٩٣م للتوغل فى تشاد ، ثم وقّع سلطان باجرمى معاهدة معهم بمقتضاها وضع سلطته تحت حمايتهم ، وبعد

ذلك بعامين تحددت مناطق النفوذ الفرنسية بمقتضى اتفاق فى مؤتمر دولى بعد المواجهة الفرنسية البريطانية فى فاشودة، فضمت واداى إلى منطقة النفوذ الفرنسى ، وإن ظل هذا الإقليم من الناحية الفعلية مستقلا حتى عام ١٩٠٤م . ومع بداية القرن العشرين وقّعت كانم أيضا اتفاقية حماية . وتوقف مد النفوذ الفرنسى وإخضاع الإقليم بكامله على القضاء على رابح الذى كان نفوذه يمتد إلى كانم وبورنو وباجرمى وواداى . وبعد اشتباكات عدة غير ناجحة ، وُضعت خطة للقضاء عليه بوساطة ثلاث قوات : إحداها من إحدى الواحات الجزائرية ، والثانية من إقليم النيجر ، والثالثة من الكنغو ، واستطاعت بالفعل القضاء على رابح فى ٢١ أبريل ١٩٠٠م حين قُتل فى معركة فوسيرى Fousseri . وعلى الرغم من هزيمة أنصار رابح ، لم تستقر الأمور فى مختلف أقاليم تشاد سوى عام ١٩١٥م ، ولم تظهر إدارة فعلية لكل الإقليم إلا بعد ذلك بخمس سنوات . وكان النفوذ والسلطة الفرنسية قويين فى الجنوب ، وقلت تلك السلطة تدريجيًا فى الشمال . كما وضع غير المسلمين الذين كانوا فى حماية سلطان باجرمى تحت الإدارة الاستعمارية الفرنسية مباشرة القائمة فى أويانجى شارى حتى عام ١٩٤٦م .

وكان الإقليم الأوسط يضم محميات كانم وباجرمى فضلاً عن واداى الأقل خضوعًا . أما الإقليم الشمالى ويشمل أقاليم : بورقو وإنيدى وتبستى ، وهى الأقاليم التى جمعت معا من الناحية الإدارية وإن كانت لم تحتل بواسطة الفرنسيين إلا عام ١٩١٤م ـ فإنه حتى بعد استقلال تشاد عام ١٩٦٠م كان تحت إدارة عسكرية أكثر منها مدنية إدارية .

وفى الحق تمت السيطرة على باجرمى على خطوات بدأت بتوقيع معاهدة ١٨٩٧م التى وضعت بمقتضاها باجرمى تحت الحماية الفرنسية مع الإبقاء على

السلطان ، ثم كانت عدة اتفاقيات أخرى بهدف القضاء على الرابح الزبير ، وهى الاتفاقيات التى أخذت تقلل من سلطة السلطان ، ومنها موافقة السطان على عدم التجارة فى الرقيق ، وسحب ادعاءاته الخاصة بالضفة اليسرى لنهر شارى . ونتيجة لهذا منح راتبا قدره ١٠٠ ألف فرنك فرنسى ، ثم أخذ هذا المرتب يتقلص سنويا بحجة أن السلطان لا يلتزم بوعوده ، كذلك خفضت الضرائب التى كان يجمعها السلطان من الرعية على أساس أنها تمثل عبئا على الرعية . وفى عام ١٩١٥م أقيمت إدارة مدنية مسئولة عن الضرائب المباشرة والقضاء ، ومن ثم انتهى نفوذ السلطان تدريجيًا .

إسلام تشاد

كتب Anson Atterbury عام ١٨٩٩م ، أى فى فجر الحركة الاستعمارية، أن الإسلام فى إفريقية سهل للمسيحية أن تقضى عليه . وقد شارك هذا الكاتب الأمريكى كثير من الكتاب الأوربيين فى تلك الفترة المبكرة بقولهم : إن الإسلام لا شىء بدون القوة السياسية . وكتب بول مارتى Paul Marty عام ١٩١٢م، وهو من المتخصصين فى الإسلام فى إفريقية الغربية عن الحركة المريدية فى السنغال، يقول : إن الإخوان المسلمين هؤلاء لن يكون لهم بقاء بعد موت مؤسس جماعتهم[٢٦] . وعلى الرغم من ذلك فإن أتباع هذه الطريقة يبلغ عددهم اليوم فى السنغال أكثر من نصف مليون نسمة .

هكذا كان اعتقاد المراقبين الأوربيين ، بعد إخضاع سكان المستعمرات عسكريا ، أن الإسلام قد تلقى ضربة ولن تقوم له قائمة بعد ذلك ، فقد تغلبت فرنسا على قادة مثل : مابا Maba ، وساموری Samori ، ومحمود الأمين ، وتغلبت من قبل على مملكة التكرور .

والآن وبعد مرور قرن من الاستعمار ظهر أن هذه التنبؤات كانت خاطئة ، أو جانبها الصواب ، فقد تقدم الإسلام بخطى ثابتة وانتشر أكثر من القرون السابقة للاستعمار ، فقد تضاعف عدد المسلمين على الأقل ، وقُدِّر أن كل فرد تحول إلى المسيحية ، كان فى مقابله ٩ تحولوا إلى الإسلام ، وقدر فى عام ١٩٧٧م أن عدد المسلمين فى القارة بلغ ١٠٩ مليون نسمة فى مقابل ٩٨ مليون مسيحى ، ويمثل المسلمون أغلبية فى السنغال ومالى وغينيا والنيجر وتشاد والصومال ، وعلى عكس الإسلام بدأ نمو المسيحية يبطئ خاصة فى بعثات الكنائس المسيحية[٢٧] .

يذهب البعض إلى أن انتشار الإسلام لم يتم إلا باستخدام السيف أى بالقوة ، بمعنى أنه مع كل ضربة سيف تظهر المؤسسات الرسمية وتطبق الشريعة الإسلامية ، وهذا هو رأى الغرب أو غير المسلمين بوجه عام إلا فيما ندر ، ولكننا كلنا نعرف أنه حتى بعد الفتح لم يكن هناك إجبار على الدين ، ففى مصر مثلا بعد دخول عمرو بن العاص مصر لم يُجبر أحد على دخول الإسلام ، وكان يمكن لغير المسلم أن يحتفظ بعقيدته فى مقابل أن يدفع الجزية ، وهذه ضرورة للدفاع عنه .

وفى محاولة لرفع الروح المعنوية يقول « كوامى بدياكو » عن أندرو ولز فى مقالة فى مجلة الفكر المسيحى الإفريقى : « كان المسيحيون فى أوربا - بما فيها روسيا وأمريكا الشمالية - يمثلون ٨٣% من مسيحيى العالم عام ١٩٠٠م ، فى حين أن مسيحيى إفريقية لم يكونوا يمثلون سوى ٢% ، ولكن نصف مسيحيى العالم فى يومنا هذا يعيشون فى القارات الجنوبية ؛ إفريقية وآسيا وأمريكا اللاتينية والأقيانوسية »[٢٨] ، وتظهر المغالطة فى محاولة اللعب بالأرقام . أليس الأجدر بهذا الباحث أن يعطينا نصيب إفريقية الآن حتى تصبح المقارنة صحيحة

كاوار
إيـر
الهوسا
زاغـــاوا
دار زاغاوا
مانجا
كانيم
بحيرة تشاد
بورنو
ماندارا
الجوكون
زكزك
السودان الأوسط
كانم ١٣٠٠ م
بورنو ١٨٠٠م

شكل (٨)

لأنه أعطانا نصيب إفريقية (٢%) عام ١٩٠٠م ، ثم أدخلها ضمنا مع قارات أخرى ، فلماذا لم يعط لنا نسبة إفريقية وحدها ؟! هى المغالطة لا شك . أما الطريقة الأخرى ، فهى الطريقة السلمية ، بفضل هؤلاء المسلمين الذين عاشوا فى مجتمعات غير إسلامية وعملوا فيها ، وهذا ما حدث كثيرا فى السودان الأوسط ، وإن حدثت مناوشات بين الحين والحين ، ولكن الغالب هو التحول السلمى ، فقد فشلت سيوف صنهاجة فى تحويل البامبارا والموسى ، فالقوة ليست بديلا عن السلام[٢٩] .

وفى حالة تشاد بالذات لم يذكر أحد أن استخدام السيف ولا البندقية ، كما نعرف من بحوث تاريخ المنطقة ، كان سببا فى انتشار الإسلام ، وهنا كان اعتراف العلماء غير المسلمين بهذا حين يذكر Azevedo, M ; Unadogzie «أن توسع الإسلام فى شمال شرقى تشاد ووسطها إلى الجنوب من درجة عرض ١٣ شمالا - وهى الدرجة التى يعدانها فاصلة بين الإسلام والمسيحية والديانات التقليدية أو الرعاة والزراع - كان تقدم الإسلام هادئا وسلميا Peacemeal وكانت بدايته فى المدن والبلدان أكثر من الريف وبوصفه امتدادًا لإسلام الشرق الأوسط وحركة التجارة»[٣٠] .

هناك مدرسة ثالثة تقول بأن التحول إلى الإسلام والمسيحية لا يحدث إلا عندما تتوافر ظروف سياسية واقتصادية واجتماعية تخلق جوا أو حالة تتطلب التغير ، كما قال الأنثربولوجى Robin Horton : إنك تجد فى الدين الجديد حافزًا Catalyst للتغيير[٣١] ، وهذا غير صحيح بالنسبة للسودان الأوسط بل وغرب إفريقية بما فيه تشاد بطبيعة الحال ، فما التغير الذى حدث فى تادماكد أو أبيشيه ابتداء من القرن السابع بحيث أتى الإسلام فكان حافزًا لهذا التغيير ؟

عوامل الانتشار

على الرغم من تعدد الآراء فيما يختص باتصال السودان الأوسط والغرب الإفريقى بالإسلام ، فالرأى الراجح أن البدايات الأولى ترجع إلى القرن الثامن الميلادى ، ففى النصف الأول من ذلك القرن بدأ الإسلام يتسرب مع طرق القوافل التجارية العابرة للصحراء التى كان يقودها المسلمون ، وكان من نتائجها وآثارها أن استقر بعضهم فى المراكز التجارية على طول الطرق الصحراوية ، ولكن الأهم أنه كانت مراكز الاستقرار فى نهاية هذه الطرق الصحراوية ، أى فى النطاق السودانى بعد أن يعبروا الصحراء بقسوتها . من هذه الطرق ما كان يصل شمال غربى إفريقية أو المغرب الكبير بغربى القارة ، ومنها ما كان يقع أكثر شرقية ، وهنا تبرز أهمية تشاد (كانم وبورنو) مع برقة وطرابلس .

تشاد دولة ممر :

وإذا كانت العروبة والإسلام مصدرهما البداية الشمالية لليبيا ، فإن موقع تشاد الجغرافى بدون نافذة بحرية ، وبين أقاليم مختلفة فى إنتاجها ؛ إقليم النطاق السودانى فى جنوبيها ، ونطاق البحر المتوسط وأوربا ومن ورائه فى الشمال ، أدى إلى أن ظلت حركة التجارة حركة مستمرة نشطة على طول العصور التاريخية كما تظهره الخرائط سواء قبل الإسلام أو بعده .

وتلعب الصدفة الجغرافية لعبتها فى أن تقع تشاد إلى الجنوب من ليبيا ، وكانت موانئ السواحل الليبية الطويلة منحنية نحو الجنوب ، وهو ما مكن لموانيها أن تكون أقرب إلى الإقليم السودانى وما وراءه (قارن هذا بسواحل تونس ، الجزائر ، المغرب) ، كما لا توجد تلك السلاسل الجبلية والهضاب الموازية للساحل ، فأدى هذا إلى انسياب الليبيين نحو الجنوب فى طريقين

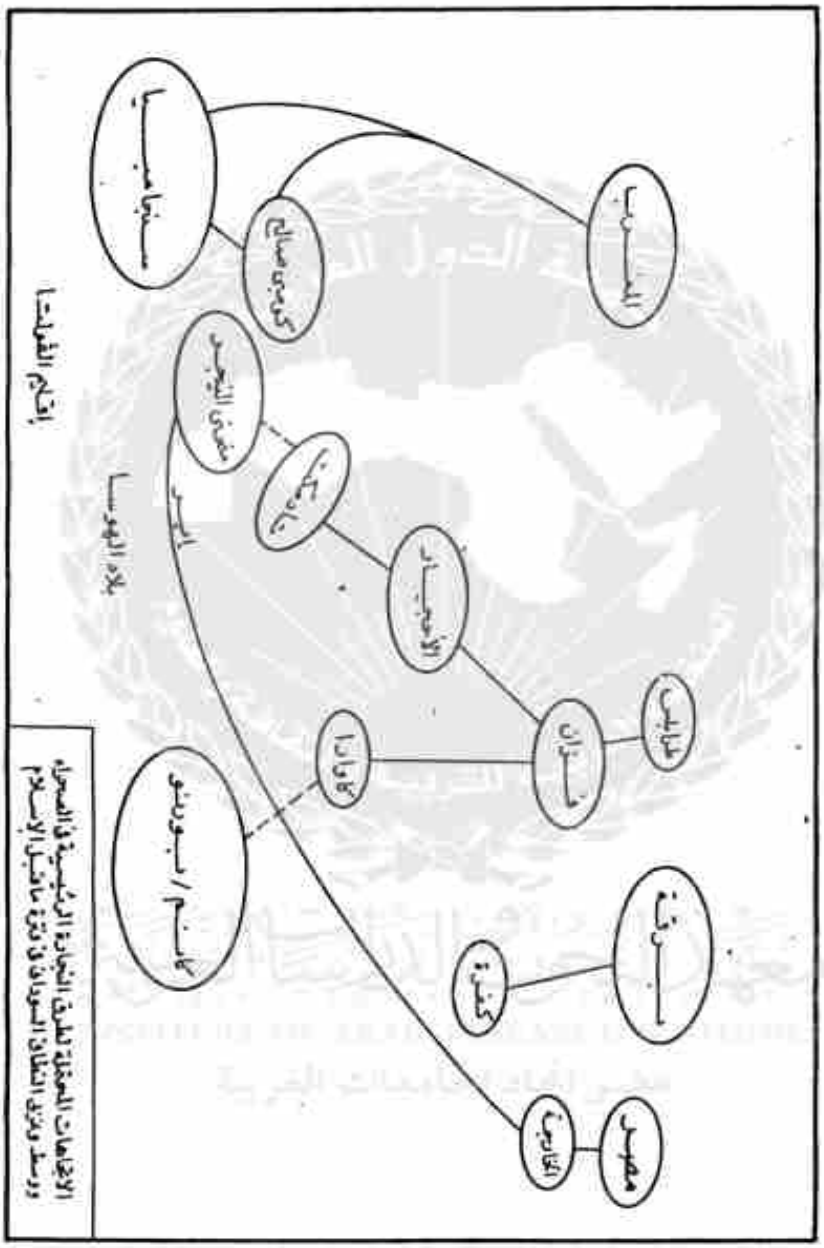

شكل (٩)

رئيسيين ؛ بنغازى / تشاد ، وطرابلس / سكوتو ، وغيرهما من مئات الدروب والمفازات الفرعية .

أخذ العرب والمسلمون يتوغلون إلى ما يلى الصحراء الكبرى جنوبا منذ القرن الثامن الميلادى ، وكان توغل العرب وانسيابهم نحو الجنوب يتم فى حركات مستمرة متدفقة ، إذ فاق العرب غيرهم من الشعوب فى مقدرتهم على الانسياب الداخلى ، فالرومان مثلا لم يستطيعوا التوغل أبعد من السهل الساحلى ، وأقاموا خطا من الثغور يحمى حدود مناطق نفوذهم من عربان القبائل الداخلية ، على حين كان العرب الذين هم أساسًا من البدو أكثر قدرة على التغلغل فى صميم الداخل ، وجنوا من ذلك أرباحًا كثيرة ، بل قامت ممالك فى نهاية هذه الطرق اعتمادًا بالأساس على التجارة . وفى الحقيقة لقد حدثت تطورات مذهلة فى العلاقات التجارية والمبادلات الثقافية والاتصالات البشرية ، فمن نهر السند إلى جبل طارق ، ومن البحر الأحمر إلى مدغشقر ، ومن إفريقية الشمالية إلى المناطق الواقعة فيما وراء الصحراء الكبرى ، كان انتقال البشر والممتلكات حادًا إلى درجة أن روبرت كورنفان كتب عن وحدة العالم الإسلامى الاقتصادية وعن الاستقلال السياسى للإسلام الإفريقى ، فقال : «إنها وحدة يصعب تصورها فى عالمنا الذى يئن تحت وطأة الحدود ، وحيث الجوازات والتأشيرات ضرورية لكل تنقل . وعلى مدى العصر الوسيط بأكمله ، كان التاجر أو الحاج المسلم يجد نفسه - من السند حتى إسبانيا وفى السودان - أمام لغة واحدة ، ونمط عيش واحد ، وديانة واحدة ، على الرغم من خلافات الخوارج والشيعة التى كانت تبدو مع ذلك سياسية أكثر منها دينية صرفة» .

وفى الحق فقد أصبحت إفريقية ، من القرن الثانى عشر حتى القرن السادس

عشـر ، ملـتقى تجاريـا دوليًا فـى أكـثر من وجه . وكان تأثيرها فى باقى العالم مذهـلاً . ولا يمكن تفسير نمو دولة كانم وتطورها بدون الرجوع إلى التجارة عبر الصـحراء . فليس من باب المصادفة بلاشك أن نجد أكبر دولة فى وسط السودان تـتكون فـى المصب الجنوبى لمحور القوافل الكبير المار بفزان وبواحات الكوار ، ويـرجح أن تكون هذه الطرق قد استخدمت منذ العصر الرومانى ، فقد كانت أكثر الطـرق مباشـرة للوصل بين إقليم بحيرة تشاد والبحر المتوسط ، ولم يكن لينافسها غـير طـريق الشـرق الوعرة التى تمر بواحات الكفرة وطريق الغرب التى كانت تمر بتاكيده ثم - فيما بعد - بمدينة أجاديس .

كانـت مملكـة كانم تقع فى شمال شرق بحيرة تشاد ، وكان محتوما عليها - بحكـم موقعهـا هـذا - أن تشـرف علـى المنطقة الواقعة فى غرب البحيرة ، حيث سـتقوم مملكـة بورنـو ، لتؤمـن سـيطرتها علـى تجارة قفر تجاه الجنوب . غير أن الكـوار كان يسهل الوصول إليها أيضا من ناحية الآير (تاكيده ثم أجاديس) ، ولهذا كانت السيطرة على هذا الموقع المهم من الطريق هدفًا أساسيًا لملوك بورنو على حد سواء ، وكانت السيطرة على كوار تمثل أهمية أكبر من أهميتها بوصفها موقعًا استراتيجيًا للتجارة عبر الصحراء ؛ فالواقع أن الملاحات الوفيرة الإنتاج فى بـيلما كانت تدر على أصحابها دخولاً هائلة بسبب تصدير الملح بكثافة إلى بلاد السـاحل ، ولـم يكـن فـى إقلـيم وسـط الصـحراء ملاحـات تضاهيها فى قيمتها الاقتصادية[٣٢] .

وكانـت تلـك القوافـل مـن الضـخامة بحيـث يمكن أن تبلغ أعداد الإبل فى القافلة الواحدة ستة آلاف ، وقد تزيد إلى اثنى عشر ألفا .

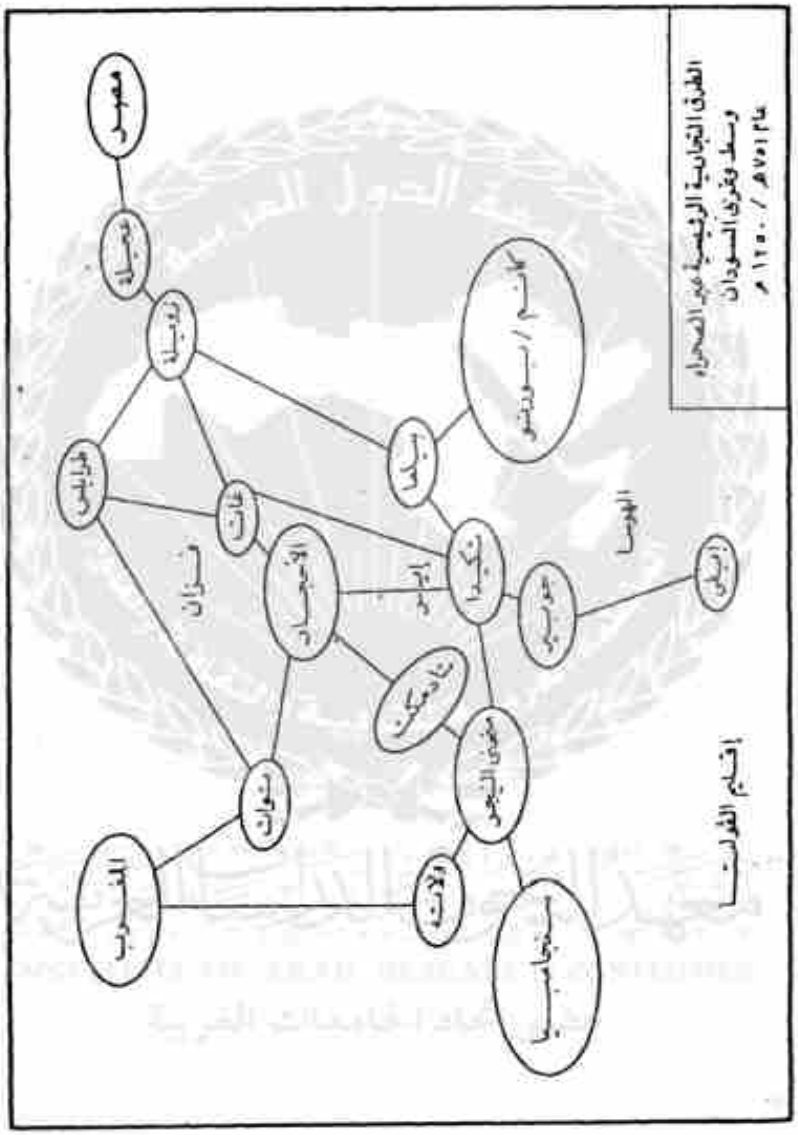

شكل (١٠)

وكانت السلع موضوع التعامل تتمثل فى الرقيق ، وكان تجارة مشروعة فى العالم أجمع حينذاك ، وزيادة على الرقيق كانت القوافل المتجهة إلى فزان ومراكز البحر المتوسط تحمل معها أيضًا بعض السلع المستطرفة ؛ مثل أنياب الفيلة ، وريش النعام بل حيوانات حية كذلك . وقال الإدريسى (القرن الثانى عشر) : إن شبّة كوار كانت مطلوبة أشد الطلب فى شمال إفريقية . وكانت الخيل أهم ما يستورد ؛ فقد كانت مطلوبة لقيمتها الحربية . ويؤكد الرواة أن فرقة الفرسان فى عهد فوناما ديبالامبى حوالى (١٢١٠م - ١٢٤٨م) كانت تتكون من ٤١٠٠٠ حصان .

ويمكن الافتراض من ناحية أخرى أن النحاس أيضا كان من بين السلع المرسلة إلى وسط السودان ، فنحن نعرف أن هذا المعدن كان يستخرج فى القرن الرابع عشر - بكميات صغيرة على الأرجح - من مناجم تقع بالقرب من تاكيده . ويظن أنهم كانوا فى ذلك العصر قد بدأوا فعلا فى استغلال مناجم القصدير من الهضبة النيجيرية . ويروى لنا بيتى دى لاكروا أن القصدير كان فى بداية القرن السابع عشر من السلع المرسلة من بورنو إلى طرابلس . والمعروف أن النحاس والقصدير (والزنك أيضا) من المعادن التى لا غنى عنها لصناعة البرونز ، ونحن نعلم أن فن المصنوعات البرونزية كان مزدهرا فى بنين ونيوب قبل مجىء البرتغاليين إلى ساحل الأطلسى .

وكان حجم المعاملات التجارية بين الشمال والجنوب يتوقف إلى حد كبير على حالة الأمن فى طريق القوافل الرئيسى فى الصحراء الوسطى . ففى النصف الأول من القرن الثانى عشر كانت ثلاث ممالك كبرى تؤمن المرور عبر هذا الطريق : مملكة فزان فى الشمال - وكانت منذ بداية القرن العاشر تحت حكم

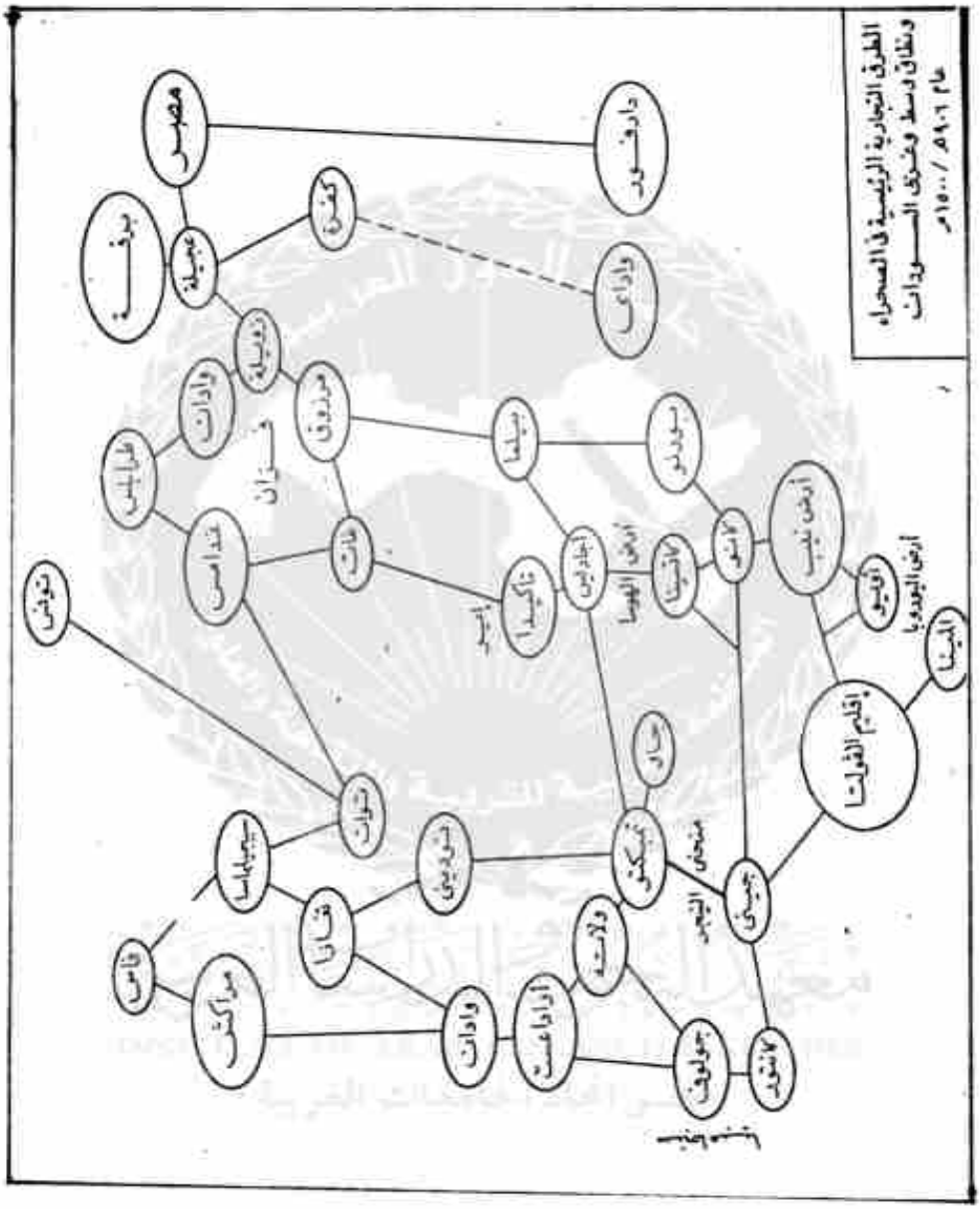

شكل (١١)

أسـرة بنى خطاب البربرية ، ومقاطعات كوار الأمازيجية فى الوسط ، ومملكة كانم فـى الجـنوب . ويؤكـد الإدريسى وجود مدن صغيرة كثيرة يسكنها التجار وعمال مـناجم الملـح[٣٣] . وكـان زعمـاء هـذه الطوائـف من الطوارق الملثمين . ويقول الإدريسـى إن سـكان كوار كانوا مشتغلين على وجه الخصوص باستخراج الشبـة المسـتخدمة فـى الصـباغة والدباغـة وتسـويقها ، وكانوا ينقلونها شرقا حتى مصر وغربا حتى وَزْجلة .

وكـان لمجموعـة واحـات فزان بالنسبة للتجارة عبر المسافات الطويلة أهمية تجـاوز أهمـية كـوار . فهـى تقع عند ملتقى طريقين من أكبر الطرق التجارية بين الشـمال والجـنوب (إفريقـية / طـرابلس - كـانم / بورنـو) وبين الشرق والغرب (مصـر / غانـا / مـالى / صـنغى) . ولـم يكـن لكانم بديل لمبادلاتها التجارية طويلة المدى مع بلدان البحر المتوسط (باستثناء المغرب الأقصى) ، وكان لابد لمعظـم السـلع الـواردة والصادرة من المرور بها . وكان التجار الذين يتعاملون مع بلـدان المغـرب هـم وحدهـم الذيـن يستطيعون تجنب فزان وسلوك الطريق البالغ الوعـورة المـار بجـادو وتاسـيلى . ولهـذا فلابد أن واحدا من الأهداف الرئيسية لملـوك كانم وبورنو كان تأمين طريق القوافل بين الشمال والجنوب والسيطرة على المحطات الواقعة على هذا الطريق[٣٤] .

التجارة أو التجار

لـنا وقفـة هـنا مـع الـتجار والتجارة ، فكثير من الباحثين يربطون بين التجار وانتشـار الإسلام ، فالتجارة كانت هى العامل الرئيسى فى انتشار الإسلام فى غربى السودان ووسطه ، ذلك أنه ليس من الضرورى أن يقوم التجار بنشر الإسلام ، ولكن القوافـل نفسـها كانـت تحمـل فـيما تحمـل العلمـاء بوصـفهم أئمة ، ومعلمين ،

وقضاة ، وقد استقروا فى المراكز التجارية التى سبق ذكرها ، والبعض الآخر الذى كان يعمل تاجرا قد يتحول ، إذا كان متعلما وملما بالدين ، عن التجارة ، ووجد أنه من الأربح له بعد أن بلغ من العمر والكبر أن يستقر .

وهكذا نؤكد على أن التجارة هى الأساس ، لأن بعض العلماء لم يقوموا بالتجارة أصلا ، بدليل أن الإسلام لم ينتشر فى عصوره الأولى فى هذه المناطق فى الأقاليم البعيدة عن طريق التجارة كما هو الحال فى شمال غرب حوض الفولتا .

تشاد طريق الحج

من المعروف أن الإسلام أصبح الدين الرسمى فى دارفور خلال فترة حكم سليمان سولونج (١٥٩٦م - ١٦٣٧م) فى الوقت الذى كان قد دخل بورنو قبل ذلك بكثير ، وقد رأينا حركة الاتصالات القديمة بين الإقليمين ، فيمكن بقدر من الثقة القول بأن إسلام دارفور أتاها من الغرب (تشاد) قبل الشرق ، وذلك من خلال حركة الحجاج من عصور قديمة إلى وقتنا الحاضر ، ويبدو أن هذا الطريق كان مفضلاً عن الطريق المتجه إلى طرابلس ومصر ، فالطريق الأخير كان يستخدمه أولئك الذين كان فى استطاعتهم تأجير أو شراء جمل لعبور هذه المسافات الطويلة من الصحراء ، فى حين أن أغلب الحجاج كانوا من البسطاء الذين يقطعون الطريق على أقدامهم على طريق دارفور وشرق السودان ، ويتدفقون بين الحين والحين للعمل من أجل الحصول على الزاد[٣٥] . وقد أعطى بوركهارت الذى قام برحلة من وادى النيل إلى الحجاز عام ١٨١٤م وصفا للطرق التى كان يتبعها الحجاج فى السودان ، فكانت الطرق الرئيسية من دارفور إلى كردفان إلى سنار ، ومن هنا يتفرع الطريق ، إما إلى أثيوبيا وميناء مصوع وإما إلى شندى

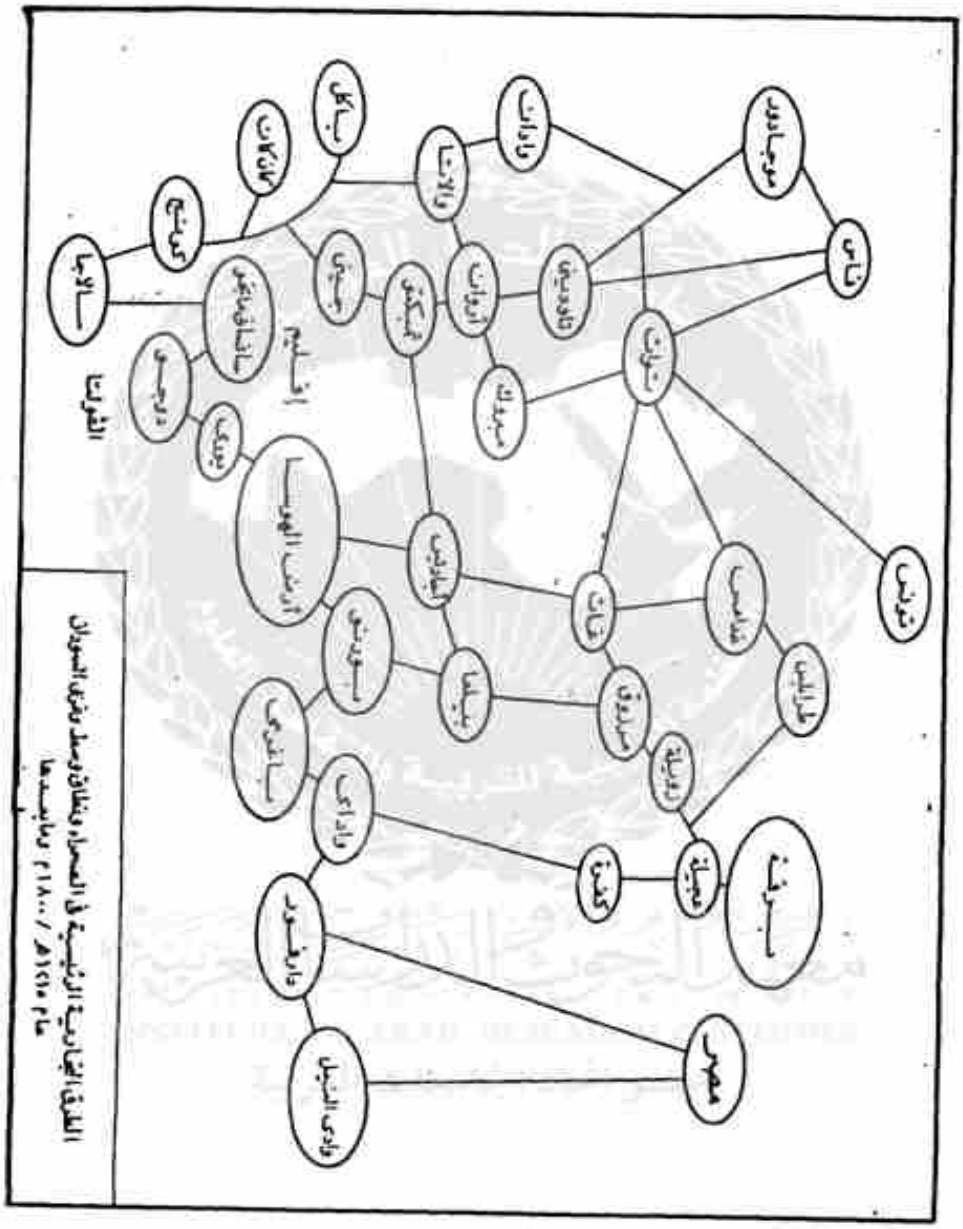

شكل (١٢)

وسواكن ، وقدر عدد هؤلاء الذين كانوا يتبعون طريق أثيوبيا ومصوع ما بين ١٢٠ إلى ٢٠٠ حاج سنويا ، فى حين أنه قدر الذين كانوا يسلكون طريق شندى - سواكن بنحو ٥٠٠ حاج سنويا . هذا كما اعتاد كثير من الحجاج التكارنة على البقاء فى السودان بعد العودة من مكة ، وكانت النتيجة أن استقرت أعداد كبيرة منهم خاصة فى أرض الجزيرة وقضارف وكسلا . وهذا مثل لأهمية الموقع الجغرافى بالنسبة للحجيج من غربى إفريقية[٣٦] .

الطرق الصوفية

وتعد الطرق الصوفية أكبر قوة دافعة للإسلام فى تشاد ، حيث كانت تمارس نشاطها الدينى والتعليمى ، وأهمها التيجانية والقادرية ، وإن كان للسنوسية وضع خاص فى شمالى تشاد ، بفضل الزوايا التى أنشأتها ، وهى الطريقة الصوفية التى انتشرت بين أهل برقة بعد عام ١٨٤٣م ، واتسع نفوذها جنوبًا على امتداد التجارة.

بدأ السنوسى حركته بدعوة الناس إلى الالتزام بفرائض الدين الحنيف ، وأمرهم باتباع ما أمر الله به فى كتابه الكريم عباده الصالحين ، ونهاهم عما نهى عنه الله حتى يصلح حالهم ، وتستقيم أمورهم بطاعة الله ورسوله ، والدعوة إلى إقامة الصلوات الخمس لقوله تعالى : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن يطع الله ورسوله فأولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقًا ﴾ .

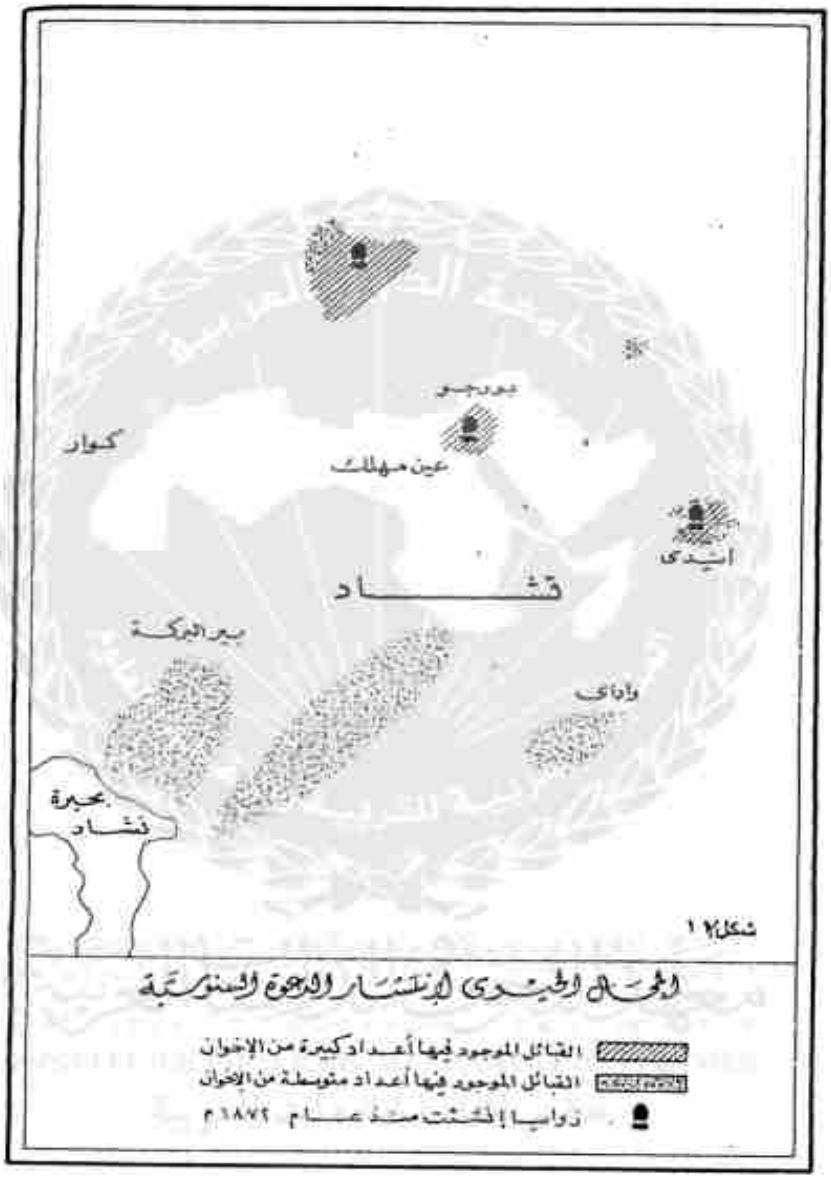

كوار
تشاد
وادای
بحيرة تشاد
شكل ١٢
المجال الحيوى لإنتشار الدعوة السنوسية
القبائل الموجود فيها أعداد كبيرة من الإخوان
القبائل الموجود فيها أعداد متوسطة من الإخوان
زوايا أنشئت منذ عام ١٨٧٢م

شكل (١٣)

كما كانت تعاليمه تدعو إلى اتباع فرائض الإسلام ، وصيام رمضان ، وإقامة الصلاة ، وحج البيت ، وإيتاء الزكاة ، واجتناب ما نهى عنه الله من قول الكذب والغيبة ، وابتزاز أموال الناس بغير حق ، وشرب الخمر ، وشهادة الزور ، والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، كما أمر أن يكبح كل فرد من أفراد الأمة جماح نفسه عن الشهوات ، ويبعدها عن ارتكاب المعاصى ، فأمر بالاتحاد والتعاون وربط أواصر الأخوة الإسلامية التى لا تعرف الفرقة بين جنس وآخر ، فلا فرق بين عربى وأعجمى إلا بالتقوى ، ولا تعرف السنوسية وطنا خاصا ، ولا تنظر إلى الحواجز الإقليمية .

ومن هنا نجد انتشار الزوايا السنوسية انتشارا واسعا ، وبعد انتشارها انتشارا لأفكار الشيخ السنوسى وآرائه ومبادئه .

ومن العوامل التى ساعدت على انتشار السنوسية :

١ - عدم استعمال العنف ، والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة .

٢ - اختياره لمراكز رئاسة زوايا ذات مواقع استراتيجية ، فبرقة ـ على سبيل المثال - فى ملتقى الطرق والقوافل التجارية .

٣ - وجد السنوسى فى أهل البادية تربة خصبة يزرع فيها أفكاره لنشر الدعوة بما يناسب فطرتهم البدوية .

وبانتقال السنوسية إلى جغبوب لأنها على طول الطرق التجارية فى إفريقية وفزان والمناطق التى أطلق عليها (إفريقية الاستوائية الفرنسية) وأولها تشاد ، انتشرت زواياها ومنها زوايا تشاد .

وكانت الزاوية هى المكان الذى يضم مسجداً ، ومدرسة لتحفيظ القرآن ومساكن للطلاب الغرباء يطلق عادة عليها (خلوة) ، والخلوة مقسمة إلى مواطن للغرباء ، وكل قسم منها يسمى (رباطا) .

كما تضم الزاوية مكتبة ، وهى بمثابة معهد دينى لتدريس العلوم الإسلامية ، وبيوتًا للأساتذة ، وبها مجلس لاستقبال الضيوف . وكانت الزوايا عادة ما يختار موقعها بجوار الآبار وعلى الأطلال التى خلفها الرومان فى الصحراء ، وفى المواضع الصالحة للزراعة ، وخاصة المواقع الاستراتيجية ، سواء أكانت عند تقاطع طرق ، أم كانت ملتقى قوافل تجارية . وكان معظمها منتشرا فى الصحراء تجاه الجنوب(٣٧) .

وكما كان للسنوسية دور فى نشر الإسلام ، فقد كان لها أيضًا فضل كبير على نشاط التجارة عبر تشاد ، إذ كانت طريق بنغازى - واداى تفوق سائر طرق التجارة حيوية ونشاطًا فى نهاية القرن التاسع عشر . وكانت هذه الطريق التى تصل ولاية برقة بوادای مباشرة قد اكتشفت فى أوائل القرن ، وكان سلاطين واداى الذين تعاظمت سلطة دولتهم باطراد بعد منتصف القرن الثامن عشر ، حريصين على تعزيز دور طريق تنافسى بورنو غربًا ودارفور شرقًا . ومنذ عام ١٨٦٠م ، بات مصير هذه الطريق التجارية مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بمصير السنوسية ، وكان لنجاح هذه الطريقة الدينية تأثير كبير على التجارة ، بالنظر إلى أن منظمة واحدة كانت تتولى شئون الطريق من أولها إلى آخرها ، مزودة التجارة بإطار قانونى واجتماعى وتجارى مشترك ، بل زودتهم أيضًا بمرفق بريدى . وقد بذل زعماء هذه الطريقة قصارى جهدهم لتعزيز التجارة بالمحافظة على الأمن على طول الطريق ، وعمدوا لهذه الغاية إلى التوسط لحل النزاعات بين الأسر أو الفئات الاجتماعية أو حتى

بين جماعات إثنية بكاملها ، وكثيراً ما وُفقوا فى سعيهم إلى استعادة البضائع المسروقة أثناء الغارات على القوافل . وأفادت التجارة بدورها السنوسيين ، إذ كانت تكفل لهم دخلاً من رسوم العبور وأجور التخزين ، وتجلب لهم الهدايا من التجارة ، وتضفى طابع الوحدة على أراضى السنوسية المترامية الأطراف .

ودامت التجارة بين بنغازى وواداى إلى ما بعد نهاية القرن بفضل السنوسية ، ولأن الطريق كانت تصل إلى مناطق أبعد من المحطات الواقعة فى أقصى جنوب خط التجارة بين طرابلس وكانو . أما الطريق الواقعة فى أقصى الشرق ؛ أى درب الأربعين ، فقد تضاءل دورها بعد منتصف القرن على أثر نمو التجارة بين بنغازى وواداى . وبعد عام ١٨٥٥م ، عطلت الدولة المهدية فى السودان درب الأربعين وطرق النيل[٣٨] .

ترحيب ملوك تشاد بالفقهاء والدعاة

بعث قدوم التجار والفقهاء والدعاة العرب المسلمين من شمال إفريقية ومصر نشاطا ملحوظا فى إفريقية الغربية إبان العصور الوسطى ، وقد أدى هؤلاء واجبهم فى نشر الدين الإسلامى والثقافة العربية فى ربوع تلك المنطقة ، والتحق كثير منهم بالملوك والأمراء ، وعملوا فى خدمتهم ، أو قدموا إليهم الخبرة والثقافة ، وحببوا إليهم الدين الجديد .

وهكذا نستطيع تفسير إيمان بعض الملوك والأمراء قبل الشعوب بالدين الإسلامى ، وهو الأمر الذى يحاول الأوربيون تشويهه ، ونضرب الأمثلة بما كان يحدث من ترحيب وإجلال لهؤلاء العلماء فى بورنو وباجرمى وواداى ؛ أى فى تشاد ، عندما انتشر الإسلام هناك .

فمن المعروف أن بورنو أصبحت أقوى الممالك الإسلامية فى إقليم السودان بعد انهيار صنغى عام ١٥٩١م ، ويرجع جزء كبير من مكانة صنغى السياسية والاقتصادية وقوتها الحربية إلى ملكها إدريس عالوما (١٥٦٩م - ١٦٠٣م) الذى وصفه معاصروه بأنه كان دبلوماسيا محنكا وليس مسلما فحسب بل عاشقًا للإسلام ويعمل كل ما فى وسعه لترقية بورنو ، وعلى الرغم من تدهور قوة بورنو ونفوذها فى القرن الثامن عشر وخاصة بدءا من ١٧٥٩م ، لم يكن هناك ما يدل على تدهور أو توقف كثير من نمو الإسلام وانتشاره فى المملكة ، فقد سجل المعاصرون على المايات أو الملوك أنهم يحبون العلماء لما يؤدونه من خدمات للإسلام مثل حمدون بن دوناما (١٧١٧م - ١٧٣١م) ويقال إن على بن دوناما (١٧٥٠م - ١٧٩١م) كان من أعدل وأحسن الملوك ، وكان مشهورًا بحبه للعلماء[٣٩] .

وكانت بلدة نجوزارجامو Ngozargamu تضم عدة مساجد فى منتصف القرن السابع عشر يؤمها آلاف المؤمنين يوم الجمعة .

وحاول الملوك إدارة شئون المملكة طبقا للتعاليم الإسلامية بحيث تحل محل المعتقدات التقليدية . وقد أحاط مای على بن الحاج عمر (١٦٤٤م - ١٦٨٠م) نفسه بزمرة من العلماء الثقات لاستشارتهم ، كما كان لديه مكتبة تضم الكثير من الكتب الإسلامية التى جلبها العلماء فى زيارتهم الأزهر بمصر[٤٠] . ويضاف إلى ذلك ما أضفاه الحكام على العلماء من احترام وتقدير مادى كالإعفاء من الضرائب ، ومن بعض الواجبات الرسمية كالخدمة العسكرية . ولم تكن حاجة هؤلاء العلماء إلى الملوك والسلاطين بأقل من حاجة الآخرين إليهم، وذلك ليشغلوا عدة وظائف فى الدولة وعلى رأسها القضاء ، وفض المنازعات بين

الناس ، وكذلك إبرام العقود وغيرها ، فضلاً عن أن العلماء يضفون صفة الشرعية على الحكام .

ويتساءل المرء : لماذا حقق الإسلام انتصارات مدهشة لم تصادف مثلها المسيحية على الرغم من دعم الاستعمار وجهاز المبشرين المنظم ؟ إن شعور الأوربى المستمر بالتمييز العنصرى واحتقاره الزنجى ولو كان أخاه فى الدين قد أدى إلى نفور الوثنيين من المسيحية ديانة البيض ، كما أن أسلوب الداعى وعلاقة إفريقية التاريخية بالعرب المسلمين قد جعلت للإسلام إغراء خاصًا لدى الإفريقيين .

ونظرًا لاختلاط ممارسات غير إسلامية مع الإسلام فقد وعاها المجاهد عثمان دان فوديو ، وقال فى شأنها : «إن هذه الأفعال إن كانت ناتجة عن جهل وعدم معرفة لا تعد كفرا » ، وذلك عندما انتشر الإسلام لدى الهوسا . هكذا كان الإسلام دين تسامح وفهم لعقلية البشر .

إن للإسلام صلة وثيقة بنفسية الإفريقى ، ذلك أن هناك تقاربًا كبيرًا بين العقلية الإفريقية والتقاليد الإسلامية ، ولهذا شعر الإفريقى المسلم منذ الوهلة الأولى بالأخوة الحقيقية بينه وبين الداعية ، وقد قال فى ذلك توماس أرنولد على لسان أحد الشهود : « إننا نجد الدعاة المسلمين ينفذون إلى قلوب الإفريقيين الوثنيين ويحولونهم إلى الإسلام » . وكان من أثر تصرفات الداعية السلمية أن أصبح الأفارقة ينظرون إلى الإسلام على أنه دين السود وإلى المسيحية على أنها دين الأوربيين البيض ، فالإسلام يدعوه للخلاص ؛ يدعوه إلى الثقة بالنفس قائلا : إن بلوغك أسمى الدرجات متوقف عليك[٤١] .

ولم يكن فى الإسلام قط نظام متدرج أو مبشرون كما فى الغرب المسيحى.

إن الإسلام فى إفريقية وهو دين المدن والبلاطات ، لم يقلب الهياكل التقليدية . كما أنه لم يحدث أن دخل الملوك السودانيون فى حروب متعمدة ومنظمة لحمل السكان على اعتناق الإسلام . وقد تمتع الإسلام بميزات على المسيحية التى نشرتها البعثات التبشيرية ، تتمثل فيما يأتى :

أولاً : الإحساس بأنه ديانة إفريقية ، وأنه لا صلة بين الإسلام والاستعمار الأوربى . وكان الذين ينشرون الإسلام أفارقة ، فى حين كان المبشرون بالمسيحية أوربيين لفترة طويلة . ويعيش المسلمون بين السكان المحليين ويختلطون بهم اجتماعيًا وفى العمل ، على خلاف المسيحيين الأوربيين الذين يعيشون فى حياة منفصلة ، ويعيشون حياة أوربية . ثم إن الإسلام كان يتفق مع بعض العادات الإفريقية كتعدد الزوجات ، ووصل الإسلام إلى إفريقية قويا موحدا لم تعتوره المذاهب والخلافات المستحكمة بين الفرق ، كما هو الحال عند المذاهب المسيحية . لقد انتشر فى إفريقية الغربية المذهب السنى المالكى، مع بعض الاتجاهات والاجتهادات الشخصية فى بعض الحركات الدينية . بهذه الصفة استطاع الإسلام أن يفرض نفسه على الإفريقى المتعطش للخلاص والهدى[٤٢] .

لا غرو إذن أن ينتشر الإسلام على مدى نصف قرن من الاستعمار أكثر من انتشاره فى القرون العشرة السابقة عليه[٤٣]، على الرغم من الدعم المادى والمعنوى الذى حظيت به البعثات التبشيرية من جانب الإدارة الاستعمارية .

دور علماء بورنو فى نشر الإسلام خارجها

كان لهؤلاء العلماء دورهم النشط الفعال خارج بورنو . ذكر محمد بللو ابن (عثمان دان فوديو وخليفته) عن علماء بورنو أنه : «لا يوجد فى بلادنا طلاب

وكتبة للقرآن يعادلون نظراءهم فى بورنو» . وقد حول علماء المسلمين نجوزارجامو إلى مركز للعلوم الإسلامية ، كما اشترك بعض طلاب هذا المركز فى حركة الجهاد فى بلاد الهوسا ، ومن أمثلتهم المعلم زكى أمير كاتاجوم الذى سبق أن تعلم فى بورنو ، وأصبح فيما بعد شخصية رائدة فى حركة الجهاد ، كذلك سافر بعض علماء بورنو لمسافات بعيدة لتعليم الدين فى بلاد الهوسا والنوب وجهات أخرى . ومن الملوك من ذهب للحج خمس أو ست مرات ، هذا فضلا عن استشارة هؤلاء العلماء قبل اتخاذ القرارات المهمة .

وأخيراً إذا قورنت بورنو بغيرها من الممالك الإسلامية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر لتبين أنها كانت أكثر الإمارات تقدما .

أما باجرمى التى تقع إلى الجنوب الشرقى من بحيرة تشاد فقد دخلها الإسلام فى النصف الثانى من القرن السادس عشر فى عهد عبد الله الحاج (١٥٨٨م- ١٦٠٣م) وكانت باجرمى لفترة ما قد حصلت على استقلالها بعد وفاة إدريسى عالوما (١٦٥٣م) ، ولكن مما لا شك فيه أن ماى بورنو كان مستولا إلى درجة كبيرة عن إرساء قواعد الإسلام فى باجرمى ، كما قام العلماء الحجاج بدور فى نشر الإسلام[٤٤] .

وفى واداى قد يكون الإسلام تأخر بعض الشىء عنه فى بورنو ، ويقال إن عبد الكريم أو محمد صالح الذى أقام حكما إسلاميًا فى واداى ، قد أرسى جماعة إسلامية فى باجرمى قبل وصوله إلى واداى ، وهناك اتخذ من وارا عاصمة له قبل أن تتحول إلى أبيشيه ، وأطلق على أسرته لقب كولاك العباسى ، بوصف ذلك مؤشرا على أصله العربى ، وهذا يدل على أن هذه الأسرة التى استمرت من ١٦٥٣م حتى ١٩١١م أسرة مسلمة . وقد انتشر العلماء من واداى ينشرون الإسلام

حولهم . وهكذا الحال حتى أصبحت واداى عام ١٨٠٠م من مراكز التعليم الإسلامى يأتيها العلماء المسلمون من سنار وجنوب الخرطوم ليتعلموا فى وارا العاصمة[٤٥] .

فرنسا والدين

من القوى الاستعمارية الثلاث الكبرى فى إفريقية (بريطانيا ، وفرنسا ، وألمانيا) . احتلت فرنسا أكبر مساحة من العالم الإسلامى الإفريقى ، وقد تمت سيطرتها على هذه المساحات عن طريق استخدام القوى الحربية أكثر من زميلتيها بريطانيا وألمانيا .

وكان هناك قطاع مؤثر فى فرنسا يعادى الإسلام ، حتى قبل إخضاع هذه الأقاليم ، فنظرتهم إلى الإسلام مريرة للغاية ، وكان جزء كبير من الذين قاموا بالحملات الحربية من هذا القطاع ، لا يقولون إلا بخطورة الإسلام أو شرور الإسلام The peril of Islam ، فلم ينظروا إلى الإسلام إلا على أنه يمثل تهديدًا ثقافيًا ، وحربيًا ، وسياسيًا أمام مشروعاتهم الاستعمارية .

وسرعان ما ظهر أن هذا الرأى كان متطرفا ، وأن موظفى الإدارة الاستعمارية تحققوا ميدانيا من صحة هذا ، فقد وجدوا أنه يمكن التعاون مع المسلمين وإن لم يكن معهم جميعا ، فهناك جماعات مؤثرة كالتيجانية الذين كانوا مستعدين للتعاون معهم . فى حين كانت هناك طرق صوفية أخرى كالحاميلية وهى طريقة إسلامية متفرعة من التيجانية والوهابية مثلت مشاكل لا تنتهى بالنسبة للإدارة الاستعمارية[٤٦] .

على العموم كانت فكرة الغالبية من الفرنسيين فى غربى إفريقية أن الإسلام

فى النهاية هو العدو الأكبر للحضارة الفرنسية التى يريدون أن ينشروها ؛ ذلك لأن هدف السياسية الاستعمارية الفرنسية هو دمج ناس المستعمرات الأفارقة فى الحضارة الفرنسية وتشكيل اتحاد مع فرنسا . وتمثلت هذه السياسة أولا فى الإدارة المباشرة ، ولكن منذ ١٣٠٧هـ / ١٨٩٠م حولتها إلى حماية لهذه الأقطار ، وكان معظم هذه الأقطار يشغلها المسلمون . كان هدف المسلمين الأول الحفاظ على الإسلام والثقافة الإسلامية ، ومن ثم كان من الطبيعى أن يتعارض هذا مع السياسة الفرنسية . وقد تفهم بعض الإداريين الفرنسيين هذا ، ورأوا أن السياسة الفرنسية المستوردة من باريس لا يمكنها أن تعمل فى هذا المحيط الإسلامى ، ومن ثم تركوا المسلمين يشكلون حياتهم كما يريدون ولا يتدخلون فيها ، إذا لم يسببوا مشكلات واضطرابات[٤٧] ، ولكن فى الوقت نفسه لم يقوموا بشىء قد يساعد على زيادة انتشار الثقافة الإسلامية ، فنَمَت فى اتحاد غرب إفريقية الذى أنشئ عام ١٨٩٥م طبقة يفترض أنها مندمجة فرنسيا ، متشربة للثقافة الفرنسية لغويا ، واجتماعيا ، وهى مميزة Privileged . وفى الوقت نفسه كانت هناك طبقة لا تتمتع بامتياز ومعظمها ، بطبيعة الحال ، من المسلمين . فالمسيحية إذن لم تمثل بالنسبة لمعتنقيها سوى وسيلة للحراك الاجتماعى والاقتصادى وكان قدوم المسيحية عن طريق الجنوب لأنها مرتبطة بالحركة الاستعمارية بطبيعة الحال ، وما دام الاستعمار قد بلغها من الجنوب ، فكذلك كانت المسيحية .

وكانت بذور الكنائس الأولى فى جنوب تشاد فى إقليم (أوبانجى شارى) بجمهورية إفريقية الوسطى فى بعض القرى التى تحولت إلى مدن عبر الزمن مثل بانجى ، على أن يمتد نفوذها شمالا حتى جنوبى تشاد . وتطورت الكنيسة الكاثوليكية ، وكان هناك توتر مستمر بين مركز المسيحية الجنوبى فى برازافيل

بإمكاناتها الكبيرة التعليمية والطبية ، وتلك التى تقع على الهوامش الشمالية ، ومع ذلك ظلت كل الإرساليات فى تشاد تابعة لأويانجى شارى حيث الجذور الأولى ، وظل الأمر على هذا الوضع حتى مارس ١٩٤٦م حين أقر البابا قيام بعثة مستقلة للعمل فى تشاد .

أما من حيث المذاهب المسيحية فقد بدأ نشاط البعثات التبشيرية البروتستانتية (الإنجيلية) الأمريكية عام ١٩٢٠م ، بفتح دور العبادة والمدارس فى ليرى Lere ، وسارا Sara ، ودوبا Doba عام ١٩٢٥م ، وفى نجامينا عام ١٩٢٦م، وقد تربى تومبالباى أول رئيس لتشاد فى مدرسة بعثية تبشيرية بروتستانتية .

أما الكاثوليكية فقد بدأت نشاطها بواسطة آباء روح القدس Fathers of the Holy Ghost فرعًا من الكنيسة الرئيسية فى أويانجى شارى ، وأسس الكاثوليكيون مدرسة ومستشفى فى كو Kou بالقرب من مندو ، ولكن اضطرهم مرض النوم إلى الانتقال بسرعة إلى دوبا عام ١٩٣٢م ، وقامت بعثة كابوتشى التبشيرية ومركزها الكمرون بفتح فرع لها فى سارا عام ١٩٣٩م ، وورثت فى هذا مكان بعثة آباء روح القدس وهكذا صار عدد البعثات التبشيرية ١٠ بعثات عام ١٩٥٠م ، ثم ازداد إلى ٣٠ بعثة عام ١٩٦٠م ، ثم إلى ٦٩ بعثة عام ١٩٧٠م ، وارتفع عدد الذين تحولوا إلى المسيحية من أقل من ١٠٠٠ نسمة عام ١٩٤٠م إلى ١٦٠ ألفا عام ١٩٧٠م ، ثم إلى مائتى ألف عام ١٩٩٤م ، كما أعيد بناء كاتدرائية نجامينا مما خلفه حطام حرب الثمانينيات ، وهى الرمز الأكبر للكاثوليكية فى تشاد[٤٨] .

واستطاعت البعثات التبشيرية - من خلال المساعدات المالية التى تأتيها من أوطانها وكذلك من مشروعاتها الزراعية وغيرها - أن تبنى الكنائس والمدارس والعيادات الطبية ، وكانت الإرساليات المسيحية تطلب تحولا وتغييرا شاملا إلى

جانب التحول من الوثنية إلى المسيحية ، فكان تشجيع التسمى بأسماء أوربية ، وارتداء الملابس الأوربية .

وقد واجهت المسيحية فى تشاد بعض المشكلات مثل بطء عمليات أفرقة الوظائف الكنسية نتيجة لعدم الاستعداد لتكوين كوادر من رجال الدين الأفارقة ليتولوا مهمتها ، وتدريس الإنجيل بلغة غير اللغة التى يفهمها الأهالى ، فضلاً عن معارضتها لتعدد الزوجات .

ويدعى الأوربيون أن سبب انتشار الإسلام بسرعة عن المسيحية فى إفريقية ما قدمه المستعمرون من أمن ، وسلام ، وحرية ، وتوقف المنازعات بل وإتاحة الوظائف لهم ، ولكن الحقيقة أن جهل الأوربيين بطبيعة السلطة فى المجتمعات الإفريقية كان دافعا لاستخدام الإدارة الاستعمارية للمسلمين فى الفترات الأولى لهذه الإدارة ، فقد رأوا أنهم أكثر فهما للشعوب الإفريقية من الأوربيين الجدد ، ثم أنه يسهل التعامل والتفاهم معهم ، لأنهم كانوا يعرفون القراءة والكتابة والحساب ، وأدخلوا العقود ، بل تركوا لهم القضاء ، وكانت معظم هذه الوظائف هى الوسيطة أو الفرعية التى يسهل تعامل الإدارة الفرنسية فيها مع المسلمين عن الأفارقة ، ولم يكن هذا كما نرى ناتجا عن عشق الفرنسيين للمسلمين . وفى الوقت نفسه كانت المراكز والوظائف الرئيسية فى أيدى الفرنسيين لأن السياسة الفرنسية فى إدارة المستعمرات هى سياسة الحكم المباشر ، وهى أقرب إلى السياسة البلجيكية والبرتغالية ، على عكس السياسة البريطانية التى كانت تميل إلى الحكم غير المباشر فكانت تترك الإدارة فى أيدى الوطنيين ولكن تحت رقابة مأمور المركز أو محافظ الإقليم ، وكذلك كانت السياسة الألمانية تنظر إلى الأفارقة ، بل وإلى غير الألمان نظرة دنيا ، ومن ثم فمسألة الدمج التى

كانت تسعى إليها فرنسا لم تكن واردة لديها .

ولتسجيل تصرفات العلماء المسلمين وسلوكهم ومراقبتهم مراقبة شديدة أنشئت إدارة الشئون الإسلامية Service des Affaires Islamiques فى المركز الجديد لحاكم غرب إفريقية فى داكار بعد عام ١٩٠٠م ، وطعم المكتب بخبراء فى الشئون الإسلامية من شمالى إفريقية ، وهذه الإدارة ما هى إلا إدارة مخابرات.

فهل بعد هذا كله يمكن أن يجرؤ أحد على القول بأن انتشار الإسلام أسرع من انتشار المسيحية كان يرجع إلى الإدارة الاستعمارية ؟ ومع ذلك تعالوا بنا لنرى موقف فرنسا ذاتها من المسلمين ، وهى التى قالت إنها ساعدت على نشر الإسلام فى المستعمرات ؛ إن يقولوا إلا كذبا !

كلنا نعرف أن فرنسا استقبلت أعدادا من مهاجرى المغرب الكبير (تونس - الجزائر - المغرب) وكانوا يستخدمون عقب الحرب العالمية الأولى فى التجهيزات العسكرية ، ومصانع الذخيرة ، والمواصلات ، والمناجم ، وحفر الخنادق من أجل القتال . والملاحظ أيضا أن الهجرة أثناء الحرب الأولى لم تكن طواعية ، بل كانت قسرية من أجل الدفاع عن فرنسا ، تعويضا عن العمال الفرنسيين الذين ذهبوا إلى ميادين القتال ، كما أن موجات المهاجرين وتقبلهم ورفضهم من جانب الفرنسيين كانت تتوقف على مصلحتهم مثلما حدث فى الفترة ١٩٢١م - ١٩٢٣م من تيسير الهجرة إلى فرنسا لحاجة الصناعة الفرنسية لليد العاملة نتيجة ما حدث للشباب الفرنسى أثناء الحرب العالمية الأولى ، وقد تكرر ذلك مرة أخرى عام ١٩٣٩م ، وبعد انتهاء الحرب الثانية عام ١٩٤٥م، وهكذا استقدموا فى الأساس بوصفهم قوة عمل رخيصة طيعة ، كى يقوموا بأدنى الأعمال فى الآلة الفرنسية ، فى فترة رواج اقتصادياتها بعد الحرب الثانية ، وفى الستينيات ، ولكن

جاءت الرياح بما لا تشتهى السفن ، وعلى حد قول أحد الأوربيين : «لقد طلبنا عمالا فجاءنا بشر » ، فقد استقر العمال ، وأصبحت لهم مطالب قوية على سوق العمل والمجتمع الفرنسى بعامة ، ومن ناحية أخرى استقدم بعض العمال أفراد عائلاتهم ، ونشأ جيل ثان من صلبهم فىالمجتمعات الأوربية ، ومن ثم تكونت مجتمعات مهاجرة متكاملة فى فرنسا وأوربا بصفة عامة ، قوامها عمال مهاجرون فى أدنى السلم الوظيفى ، ومع ذلك أصبحوا ملفوظين الآن من الذين رحبوا بهم من قبل ، بل زاد الضغط النفسى عليهم من خلال الحوادث العنصرية التى تقوم بها الأحزاب اليمينية المتطرفة ، وخاصة منذ انخفاض الدخل الأوربى وبدء ظهور البطالة ، والتضخم الشره الذى كان من نتائجه انخفاض مستوى النشاط الاقتصادى ، وكان وقع ذلك على العمالة المهاجرة خطيراً .

وأصبح أى احتجاج أو إضراب من المهاجرين المسلمين ناتجا عن سوء الأوضاع كما حدث فى إضرابهم بين عامى ١٩٨٢م - ١٩٨٣م فى مصانع السيارات ، لكن مطلبهم قد تم تحويره حتى من طرف النقابات العمالية ، فعمدة مدينة مرسيليا التى تقطن فيها جالية مسلمة كبيرة ج . ديفرى G . Deffere فى ذلك الوقت أعطى الانطباع من خلال تصريحاته ، بأن كل مسلم يتردد على المساجد هو «متطرف» محتمل ، وكل متطرف هو إرهابى كامن[٥٠] .

أين هذا من قول الصوفى الأندلسى الكبير محيى الدين ابن عربى :

قد كنت قبل اليوم أنكر صاحبى
إذ لم يكن دينه من دينى دانِ
فأص بح قلبى قابلا كل ملة
فدير لرهبان ومرعى لغزلانِ

وهيكـــل عبـــاد وكعبة طـــــائف

وإنجيـــل تـــوراة ومصحـــف قـــرآنِ

هذا هو الفرق بيننا وبينهم .

فرنسا واللغة والتعليم والصحافة

التعليم واللغة

ارتبط التعليم بالدين الإسلامى ارتباطا شديدا فى تشاد ، بل فى كل إفريقية جنوب الصحراء ، فحيث انتشر الإسلام ، انتشرت لغته ، ويكون هذا الانتشار قويا فى شمال تشاد ووسطها ، ثم يختلط بغيره من اللغات المحلية ويخفت تدريجيا فى الجنوب ، نتيجة أمرين ؛ أولهما البعد عن مناطق دخول الإسلام والعرب ، والثانى هو دخول المستعمر من الجنوب حاملا سيفه ودينه ولغته، وهكذا كان حال اللغة والتعليم فى تشاد .

ففى أول الأمر كانت المدارس ملحقة بالمساجد ، فإلى جانب كل مسجد كانت توجد حجرة لتعليم الأولاد ، وفى معظم الأحيان كانت المساجد مقرا للتعليم ، وتعقد فيها حلقات الدرس ، وكان الجامع الكبير فى وادى مركز العلم هناك ، وله شهرته الكبيرة . وكانت أول دروس للأطفال مختارات من القرآن الكريم ، وسيرة الرسول عليه السلام ، إلى جانب اللغة العربية ومبادئ الحساب ، ويلى ذلك دراسة العلوم الإسلامية كالحديث والتفسير والفرائض والنحو والصرف والبلاغة . هكذا كان المسجد هو المدرسة ، وبازدياد عدد الجوامع تزداد المراكز التعليمية، وقد بلغت أقصى توسع لها بعد عام ١٨٠٥م أيام حكم السلطان صابون ، أما التعليم الثانوى فكان متاحا فى مراكز ثقافية كمدرسة محمد الليخ

Illech التى تأسست عام ١٩١٨م ، وكان لها علاقة بالمؤسسات الدينية فى مصر، وكذلك مدرسة محمد مهدى السنغالى فى فورت لامى (إنجامينا) ومثلها فى كيسكاوا Kiskawa فى مقاطعة البحيرة، ومدرسة موسورو فى مقاطعة كانم[٥١]. وهذه الدراسات تغذى فى المراحل العليا التالية ، فى تمبكت وفاس والقاهرة ، إذا أراد الطالب متابعة تحصيله ، وكانت حلقات الدرس التى يتصدرها الأستاذ أشبه بندوات تجرى فيها المناقشات الجدلية والفقهية .

«لقد تعلمنا ـ نحن المثقفين الإفريقيين ـ فى مدارس الاستعمار تاريخ فرنسا، وحروب الغال ، وحياة جان دارك ونابليون ، وقرأنا أشعار لامارتين ، ومسرح موليير ، ودرسنا التنظيم الإدارى لفرنسا ، كما لو كانت بلادنا إفريقية بدون تاريخ ، وبدون واقع جغرافى ، وبدون ثقافة ، وبدون قيم ، وبدون أخلاق . وقد قدم الاستعمار لنا من العلم والثقافة القدر الذى يرى أنه يخلق منا آلات ترتبط مصالحها بعجلة الاستعمار . لقد أراد المستعمرون للمعلم الإفريقى أن يظل فى مرتبة ثقافية منحطة حتى يخرج تلاميذه على يديه أشد انحطاطا .

لقد أراد المستعمرون للمثقفين الإفريقيين أن يفكروا بديكارت وبرجسون ، ولم يسمح لهم بالتفكير فى قيمهم وثقافتهم وتراثهم الإفريقى ، لهذا لا يعرف كثير من شبابنا فلسفة المفكرين الإفريقيين أمثال الحاج عمر بن سعيد تال ، وأحمد ساموری توری ، وإذا استمر الأمر على هذا النحو فلن نستطيع أن ننمى شخصيتنا الإفريقية التى هى الطريق الوحيدة للنهضة فى إفريقية» . (أحمد سيكوتورى)

كان التعليم الأوربى مرتبطا بالدين المسيحى فى المرحلة الاستعمارية ، وكانت السياسات التعليمية فى المستعمرات الإفريقية مرتبطة أو متأثرة كثيرا بالكنائس المسيحية والمبشرين ، فأصبحت غالبية المدارس تحت إشراف البعثات

التبشيرية ، سواء فى المستعمرات البرتغالية أو الإنجليزية أو الإسبانية ، ولم تشذ فرنسا عن هذا النظام[٥٢] ، بل لقد كانت هى والبرتغال أكثرها تطرفا فى هذا الاتجاه .

وإذا كان الدين الإسلامى الحائل دون نجاح سياسة الفرنسة والإدماج ، فإن الاستعمار الفرنسى لم يفتأ منذ الوهلة الأولى للاستقرار فى تشاد أن يدعم التنصير . ولما كان الجزء الجنوبى من تشاد ما زال على دياناته التقليدية ، فإن الأرض هنا خصبة للغاية لا للتنصير فحسب ، بل لنشر اللغة الفرنسية كذلك .

وقد عكس نظام التعليم الفرنسى - لا فى تشاد وحدها بل فى كل المستعمرات الفرنسية سواء فى إفريقية أو فى غيرها - سياسة الاندماج أو الامتصاص assimilation ، وكانت غاية فرنسا دائما الدمج والتذويب الثقافى ، والقضاء على ما يربط الإفريقى بماضيه ، فهو يتعلم فى مدارس الاستعمار أنه لا تاريخ له ، وأن جذوره بدائية وأن زعماءه كانوا متوحشين ، ومن ثم عمل على خلق مركب النقص فى نفسية الإفريقى ، فمن صف الحضانة حتى التعليم العالى ، يتعلم الشاب الإفريقى اللغة الفرنسية وتاريخ فرنسا وجغرافيتها وأنظمتها الإدارية ، وفلسفة ديكارت ومسرحيات راسين وموليير وأشعار موسيه وكلوديل ، أى لا تختلف المناهج عما يتلقاه الطالب فى فرنسا ، بل إن المعلمين المبشرين يجب أن تكون إجازتهم الدراسية من معاهد فرنسية ، ولعل أهم ما أضر بالتعليم الإسلامى واللغة العربية إصرار الإدارة الفرنسية على أن كل موظفى الإدارة فى المستعمرة يجب أن يكونوا متخرجين من مدارس فرنسية ، ويجب أن يجيدوا الفرنسية قراءة وكتابة ، وكذلك الإصرار على أن يكون تعليم رؤساء الإدارات

فرنسيا ، وهذا معناه أن التعليم الفرنسى لا التعليم العربى هو الذى يصل بالإنسان إلى الوظائف الرئيسية[٥٣] ، وقد قرر مؤتمر برازافيل عام ١٩٤٤م أن العمل الحضارى الذى تسعى إليه فرنسا فى إفريقية الاستوائية وإفريقية الغربية لابد أن يبعد كل فكرة للاستقلال أو التطور خارج الإمبراطورية ، وإنما الهدف من النظام التعليمى الفرنسى كما جاء أيضا فى وثيقة رسمية عام ١٩٠٩م ، أن تكون المدرسة وسيلة لنشر الحضارة الفرنسية وتدريب العناصر المحلية للعمل كتبة وموظفين صغارًا للمعاونة فى الإدارة ، ومن ثم كانت المناهج فى تشاد لا تختلف عن نظيرتها فى داكار أو برازافيل أو حتى فى الصين الهندية (فيتنام) ، بل هى صورة طبق الأصل ، طبعت فى وزارة التعليم فى باريس ووزعت على أرجاء المستعمرات .

وهذا النظام الفرنسى هو النظام البرتغالى نفسه ، على عكس النظام البريطانى الذى اعتمد فى معظمه على المبادرات الفردية ، وإن كان هناك إشراف من خلال نظام المنح والتفتيش . واختلف النظام الفرنسى عن الإنجليزى ، فى أن الفرنسيين لم يعطوا أهمية لأصل الطالب القبلى أو مكانة قبيلته ، فى حين فكر الإنجليز فى تعليم أبناء الرؤساء فى نظام يجمع بين المواد العلمية المدنية وهى باللغة الإنجليزية مع قليل من اللغة العربية والدين ، وكذلك الإبقاء على اللباس التقليدى والعادات السائدة[٥٤] .

وكان لخوف المسلمين من ارتباط التعليم الفرنسى بالتبشير أثره فى إحجام أولياء الأمور عن إلحاق أبنائهم بمثل هذه المدارس ، فعلى سبيل المثال كان عدد الطلاب المسلمين فى مدرسة أبيشيه لا يزيدون على ٥٠ طالبا ، فى حين

كـان هـناك نحـو ٧٠٠ طالـب فى المدارس الإسلامية فى أم سوجو ، وكان هناك جهـد كبـير حـتى سـمح لمـدارس علمانـية فى أبيشيه عاصمة واداى بتعليم اللغة والقرآن فى الكلية الفرنسية العربية التى أنشئت عام ١٩٥٢م[٥٥] .

كانـت أول مدرسـة تقـيمها البعـثات التبشيرية البروتستانتية فى الجنوب عام ١٩٢٠م ، ثـم لحقـت بهـا بعـثة الـرومان الكاثولـيك بدعـم مالى كامل من الإدارة الاسـتعمارية ، وسـهلت لهـا الإدارة الاسـتعمارية العمـل وفـق المناهج الأوربية ، وتدريس جميع المواد باللغة الفرنسية ما عدا الدين الذى يدرس باللغات المحلية، ثـم ظهـرت المـدارس الخاصـة عـام ١٩٥٢م الـتى كانت فى حاجة إلى الاعتراف الرسـمى مـن الدولة ، فضلاً عن الإعانات ، ومن ثم كان عليها أن تلتزم بالمناهج الـتى فرضتها الإدارة وهى المناهج الفرنسية ، وظل الأمر كذلك حتى أتت الحرب العالمية الثانية ، وكانت معظم المدارس تديرها البعثات التبشيرية[٥٦] .

وكـان الهـدف مـن الـبداية هـو التركـيز على التعليم الابتدائى ، ولم يسمح لمـدارس البعـثات التبشـيرية بـأن تقبل طلابا فى التعليم الثانوى إلا هؤلاء الذين يخططـون لدخول السلك اللاهوتى clergy وهؤلاء الذين سيسلكون طرق التعليم الديـنى ، ويـتوقع المبشرون من هؤلاء أن يتحولوا إلى المسيحية ، وهو مما كان يخشاه الآباء المسلمون على أبنائهم .

ولبـيان الغمـة الـتى أصـابت التعلـيم فى الفترة الاستعمارية بما فيها مدارس البعـثات التبشـيرية ، الـتى كـان الغـرض مـنها الحصول على صغار الموظفين لا غير ، لابد من الاطلاع على الجدول .

تطور عدد طلاب التعليم الابتدائى والثانوى قبل الاستقلال وبعده فى تشاد

المرحلة	أعـــــوام				
	٥٩/١٩٥٨	٦٦/١٩٦٥	٦٧/١٩٦٦	٦٩/١٩٦٨	٩٧/١٩٩٦
التعليم الابتدائى	٥٣٤٧٩	١٦٣٩٦٢	١٧٢٤٨٥	١٧٨٦٩٩	٦٨٠٩٩
التعليم الثانوى	٥٧٣	٥٤٥٥	٧٩٩٢	٨٧٢٤	٩٧٠١١

The American Univ., Chad, 1982, pp. 97, 98 Europa, AF.S.S., 2000, p. 327.

ويتضح من الجدول السابق ما يأتى :

كان عدد طلاب التعليم الابتدائى عام ١٩٥٨ أى قبيل الاستقلال نحو ٥٤ ألف طالب ، فتضاعف أكثر من ثلاث مرات ليبلغ ١٦٤ ألفا فى أقل من ١٠ سنوات (١٩٦٥م - ١٩٦٦م) ثم اقترب من ١٨٠ ألفا بعد أربع سنوات (١٩٦٨م-١٩٦٩م)، ليتخطى ثلثى المليون بعد عقد من السنوات (١٩٩٦م - ١٩٩٧م) .

لم يكن الاستعمار الفرنسى يحارب هذا التعليم الابتدائى ، وكان يشجعه على أساس أنه مورد الكتبة والسعاة والموظفين الصغار الذين لابد منهم لتدور عجلة الإدارة حيث اتسعت الفتوحات الفرنسية ، واتسعت الشقة وتباعدت المواقع، حتى إن إحدى المستعمرات الفرنسية كانت تزيد مساحتها على مساحة فرنسا ، ومن ثم كان لابد من اللجوء إلى الأيدى الوطنية ، ولكن تحت الرقابة ، بحيث لا يدبر أمر إلا بموافقة الإدارة العليا ، بل إن حاكم مستعمرة تشاد ذاتها كان لا يبرم أمرا إلا بعد الرجوع إلى الحاكم العام لاتحاد إفريقية الفرنسى فى برازافيل ، وكانت تشاد نفسها توضع فى نهاية قائمة الاهتمام بالنسبة لأوطان الاتحاد

الأخرى ، فى حين كان الكنغو الفرنسى (برازافيل) والكمرون وجابون أكثر أهمية بسبب وفرة مواردها الطبيعية .

إذا كان هذا وضع التعليم الابتدائى إبان الفترة الاستعمارية، فلقد بدأت بعد ذلك المحرمات التعليمية وأولها مرحلة التعليم الثانوى الذى لا يجد تشجيعا ؛ لأنها مرحلة يبدأ فيها تفتح الشباب ، ومن ثم كانت الأرقام متواضعة للغاية فكانت الأعداد قبيل الاستعمار تصل إلى ما يقرب من خمسمائة فقط عام ١٩٥٨م ، ثم أصبحت تضرب هذا الرقم فى ١٥ بعد ١٠ أعوام من الاستقلال ليقترب العدد من ٩ آلاف طالب ، عام ١٩٦٨م - ١٩٦٩م ، وهو الآن يقترب من المليون ، وأظن أن هناك فرقا ، وليس هذا بمستغرب إذا رجعنا مرة أخرى إلى تقرير مدير التعليم السابق بإفريقية السوداء ؛ إذ يقول التقرير : «إن التعليم فى المستعمرات ليس أمرا عاديا ، والخطر فى أن نتوسع فيه» . وكان تقريره يعارض بلا هوادة توسيع نطاق التعليم الثانوى .

أما التعليم الجامعى فهذا معناه ظهور خطرين فى آن واحد ؛ أولهما : تكوين طبقة مثقفة حقيقية ثورية ، تقود البلاد فى معركة الحرية والاستقلال . وقد ظهر هذا فى مصر حين كان طلبة المدارس العليا (كما كانت تسمى حينئذ) يحملون مشاعل الثورة والحرية .

ثانيهما : تكوين طبقة تتولى المناصب العليا ، ومن ثم تكسر احتكار الفرنسيين لها . ويكفى أن الرئيس سنجور حين كان نائبا عن السنغال فى الجمعية الوطنية الفرنسية ظل يطالب السلطة الفرنسية ثلاث سنوات بأن تدخل مهندسين إفريقيين اثنين لا غير فى وظائف الأشغال العامة .

كما كتب سنجور نفسه فى يناير عام ١٩٥٧م فى مجلة الفكر الفرنسى : «لقد

نال أحد السنغاليين وظيفة مهندس لأنه قدم رشوة» .

إذن فالتعليم العالى دونه خرط القتاد ؛ لأنه سيفتح عليهم أبوابا من المستحسن أن تظل مغلقة لأكبر فترة ممكنة ، وإن كان ولابد من مواصلة التعليم العالى ففى كنغو برازافيل .

بعد نحو عقد من الاستقلال ، وعلى الرغم من جهود حكومة الاستقلال فى نشر التعليم وتعويض ما فات ؛ فإن الصورة العامة عام ١٩٧١م بدت متواضعة ؛ إذ أظهرت الإحصاءات أن ٨٨% من الرجال أميون ، وأن ٩٩% من الإناث فوق ١٥ عاما لا يعرفن القراءة والكتابة أو التحدث باللغة الفرنسية ؛ اللغة الرسمية للبلاد ، أما فيما يخص الرجال المتعلمين ، فإن ٤,٣% منهم يمكنهم قراءة اللغة الفرنسية وكتابتها ، و٧,٨% يمكنهم القراءة والكتابة باللغة العربية[٥٧] .

هذه هى نتيجة الفرنسة ممثلة فى محاولة زرع اللغة الفرنسية فى تشاد ، فماذا كانت النتيجة بالنسبة للسكان ؟ استطاعت فرنسا أن تصبغ دائرة محدودة باللغة الفرنسية والثقافة الفرنسية والذوق الفرنسى ، ومحاولة تقليد الفرنسيين فى حياتهم ، وما يتبع ذلك من زهو وغرور وشعور بالاستعلاء تجاه غالبية السكان ، خاصة أنهم الذين يتولون الوظائف الرئيسية ، ومن ثم قد يكون هناك شعور بعنصرية سوداء !!

الصحافة واللغة

حتى عام ١٩٧١م كانت النشرة اليومية هى Infor . Chad التى تصدرها وكالة الصحافة التشادية (ATP) Agence Tchadienne de Presse تصدر باللغة الفرنسية ، كما كان لغرفة تجارة تشاد نشرة أسبوعية بعنوان معلومات

اقتصادية Informations Economiques ، كما كانت هناك نشرات كل شهرين مثل كراسات الوحدة Cahier de L' Unite والنشرة الإحصائية لتشاد Bulletin Mensuel de Statistiques du Chad . وكانت الحكومة ترعى أيضا الجريدة الرسمية لجمهورية تشاد Le Journal official de la Republique du Chad وتصدر شهريا كلها باللغة الفرنسية ، وكلها من فورت لامى (إنجامينا) . هذا عن المطبوعات الداخلية ، وإذا نظرنا إلى الصحف المستوردة من الخارج ، ستجد أكثرها رواجا الأسبوع الإفريقى La Semaine Africaine وهى مجلة أسبوعية تصدر فى برازافيل ، تصدرها البعثة الكاثوليكية هناك ، وتانتان Tintin ، وهناك Bingo التى تصدر فى داكار ، وبارى ماتش Paris Match ، والحياة الإفريقية La Vie Africaine وكلاهما يصدر فى باريس . وهناك أيضا النشرات العلمية مثل[٥٦] :

- Chadien Researches Center , Centre de Recherches Tchadienne.

- National Chadien Institute for the Human Sciences . National

- Museum .

هل من لغة موحدة لتشاد ؟

يرى الباحثون أن وحدة اللغة عنصر مهم من عناصر الوحدة القومية ، وأنها أكبر عامل يولد فى نفوس الناس إرادة الانتظام فى أمة واحدة ، وإذا كان الإنسان يتميز عن الحيوان بأنه مدنى (اجتماعى) وأنه ناطق (مفكر) ، فإن الشعوب تتميز بعضها عن بعض بأن لكل منها لغة خاصة تتكلم بها ، فمما لا شك فيه أن اللغة هى أقوى رباط معنوى بين الأفراد ، وكما قالوا فاللغة أصوات يعبر بها كل

قـوم عـن أغراضـهم ، ومعـنى هـذا أن لكل قوم لغتهم . ومتى تفاهم الأفراد بلغة واحـدة تقـارب تفكـيرهم ، ونشأ فيهم شعور بالتعاطف ، قلما ينشأ مثله بين أفراد يـتكلمون لغـات مخـتلفة ، وهـذا الـتعاطف عـامل عظيم فى جعل المتكلمين لغة واحـدة يؤلفـون أمـة واحـدة . ولما كانت اللغة عماد الثقافة بالنسبة للأمة كانت بمـثابة الـروح بالنسبة للإنسان ، لذلك يذهب البعض إلى أن الأمة ليست ملايين مـن البشـر ، يعيشـون علـى الأرض نفسها أو يرجعون لأصل واحد فحسب ، بل الأمـة أيضًـا وحـدة من الفكر والشعور والإرادة والعمل . ومن أجل المشاركة فى الفكر والشعور والإرادة والعمل ، لابد أن يكون هناك اتصال بين أعضاء الجماعة القومـية ، ومـن ثـم كـان للغـة المشـتركة أهميـتها وأثرها بوصفها أداة فعالة فى تشـكيل الوحـدة القومـية . ومـن الناحـية الـنظرية يفترض أن العقل البشرى يفكر مجـردا ولكنه من الناحية الفعلية يفكر بلغة ما . لذلك فالوحدة التى تتم بين أناس يـتكلمون لغـة واحـدة ، لابـد أن تكون قوية لأنها تخلق فيهم أرقى أنواع الوحدة وأكـثرها ضـرورة للإنسان ، وهى وحدة الفكر ، فالصيحة التى نسمعها أحيانا فى الـدول الـتى تـتعدد فـيها اللغـات وهى «شعب واحد ولغة واحدة» ليست شعاراً سياسيًّا أجوف بأى حال ، ويزيد على وحدة الفكر والمشاعر أن اللغة تعد الوعاء الـذى تـتجمع فـيه وتخـتزن خـبرات الأمـم خلال الأزمنة المختلفة ، وإنجازاتها الأدبـية ، والفنـية ، والعملية ، وتختزن فيه آلامها وآمالها ومشاعرها بوجه عام . إن وحدة الفكر والشعور والسلوك هى ما يعطى فى النهاية الشخصية القومية .

لذلـك كانت لغة الأمة الهدف الأول للمستعمرين ، وتعمل الدول المستعمرة جـاهدة علـى قتلها لنشر لغاتها وبث ثقافتها ، لما فى ذلك من تأثير كبير فى وأد الـروح الوطنـية أو خلق شعور بالرضى عن أفاعيل الدول الاستعمارية ، وقد رأينا

فى فرنسا مثلا صارخا فى فرض لغتها ووأد لغات الآخرين .

الخطأ التربوى :

لعل من أهم القضايا المتعلقة بالسياسات اللغوية ما يخص التعليم ، لأن اللغة أداة التعليم فى مختلف المراحل التعليمية ، فما اللغة التى ستكون إجبارية؟ وما اللغة التى ستكون اختيارية للدراسة ؟ وما نسبة المنهج المدرسى الذى سيدرس بلغة أو بلغات ما ؟ وما المستويات المطلوبة فى هذه اللغة أو تلك اللغات ؟ لذلك فمعظم الذين كتبوا عن السياسات اللغوية فى إفريقية هم لغويون وتربويون . وليس من شك فى أن بؤرة اهتمامهم صالح الطالب وصالح العملية التعليمية التى يجب أن توضع فى الحسبان عند مناقشة أية سياسة تعليمية . ولكننا فى الوقت نفسه يجب أن نعترف بأن السياسة اللغوية لها نتائج أوسع من العملية التعليمية ، فالسياسة التعليمية لها خطورتها فى تكوين الأمم والشعوب ، ولن نناقشها هنا بقدر ما نناقش الخطأ التربوى اللغوى .

فلننظر إلى العبء الذى يقع على طفل فى تشاد ، فإذا كان يتعلم فى البيت لغة الأم سواء أكانت سارا أم لغة الكانمبو ، فعليه أيضا أن يعرف العربية أو التوركو ، ثم عليه أن يتعلم الفرنسية ، وهذا عبء كبير للغاية فى المراحل الأولى للتعليم بلا شك .

وقد أثبتت الأبحاث التربوية فى العالم سواء أكانت فى أوربا أم فى العالم العربى خطأ هذه الطريقة تربويا . ونستشهد أخيرا بتقرير الأستاذ بابس فافونا Babs Fafunwa فى جامعة Ife فى نيجيريا الذى صدر عام ١٩٦٧م عن أثر تعدد اللغات على القدرة على التفكير المجرد لدى الطفل من اليوروبا[٥٨] .

لقـد ظهـر أن الطفل الذى حصل علومه بلغة فى نيجيريا أقدر على الاستعادة باللغـة نفسـها مـنه لو كانت الاستعادة باللغة الإنجليزية ، وخرج بنتيجة أخرى هى أن الطفـل الـذى يـنهى مرحلة التعليم الابتدائى ويتعلم لغتين فيها ، ينهى المرحلة بـدون أن يحقـق إجـادة معقولـة لأى مـنهما ، علـى عكس الذى يقتصر على لغة واحـدة ، لأن الطفـل يتعلم بلغته ، وإدخال لغات أخرى فى التعلم لابد وأن يأتى فى مرحلة متأخرة نسبيا .

أخـيرا أوجـه النظر إلى ما قاله كول أوموتشو Kole Omotosho الكاتب النيجـيرى وأسـتاذ الجامعـة الذى قال بعد افتتاح الاجتماع الأول لاتحاد الكتاب الإفريقييـن Union of Writers of African People الذى عقد فى أكرا : إن الإفريقييـن بحاجـة لأن يعبروا عن شخصياتهم من خلال لغة واحدة ، وإنه يأسف لأن المخططين للمهرجان العالمى لفنون السود الأفارقة وثقافتهم World Black and African Festival of Arts and Culture لـم يعـنوا إلا بالفـنون والفولكلـور والـرقص ، وكـأن اللغـة ليسـت من الثقافة فى شىء ، أو أنها ليست عماد الثقافة .

إذا كـان هـذا أمـل الكاتب الأديب بالنسبة لإفريقية ، وهو أمل بعيد المنال نسبيا ، أليس من حقنا أن نطالب بلغة واحدة لنشاد وهى دولة واحدة ؟؟

ولكـن مـا اللغة التى تكون اللغة الرسمية والوطنية فى آن واحد إذا استبعدنا معظـم اللغـات المحلـية ، لأنهـا غـير مكتوبة وشفاهية ولأن انتشارها يعد انتشارا محدودا ؟ ستكون اللغة العربية هى الأولى بهذه المكانة لما يأتى :

١ - انتشارها فى مساحات واسعة وتتعدى القبيلة أو الجماعة الواحدة .

٢ - اختلاطها باللغات المحلية وظهور ألفاظ منها فى اللغات المحلية بحيث ظهرت هناك لكنة عربية (التوركو) تكون لغة تفاهم مشترك .

٣ - فيما يختص بالفرنسية ، فإنها تصبح لغة ثانية لا أولى ، ولا نقول تلغى ، فهى وسيلة للاطلاع على ما يجرى فى العالم الغربى ، هذا ولا يبدأ تعليمها فى المرحلة الابتدائية ، بحيث يُعطى الطالب فرصة لإتقان اللغة العربية .

ونظرًا لأن الموضوع ليس بالسهولة التى يتصورها البعض فلابد من تكوين هيئة فنية أو أكاديمية لبحث الاقتراحات فى هذا الصدد ، ويكون نواة الهيئة أحد معاهد البحوث والدراسات الإفريقية كالمعهد التابع لجامعة القاهرة . ويلاحظ أن الهيئات يجب أن تضم المتخصصين فى اللغات بعامة وعلم الأصوات Phonetics والتراكيب Structures بخاصة ، فضلا عن المتخصصين فى الدراسات الإفريقية عموما ؛ نظرا لأن الموضوع له جوانب أخرى غير لغوية بحتة.

* * *

الهوامش

(1) Grove.A.T. African South of the Sahara, Oxford, U.P., 1967, p. 90 .

(2) Azevedo, M., Unadozie, E .Chad, A Nation in Search of Its Future, Westview Press, 1998, pp. 68- 71 .

(٣) اليونسكو ، تاريخ إفريقية العام ، مجلد ٦، ص ٦٠٦ .

(٤) الأنهار الإفريقية وأزمة الجفاف ، مركز البحوث العربية (مترجم) ١٩٩٤.

(٥) اليونسكو ، مجلد ٦ ، مرجع سابق .

(6) Clarke, P., West Africa and Islam, Edward Arnold. p. 102 .

(7) The American University, Chad, a Country Study, Washington, 1982, p. 7.

(8) Ibid., p. 50 .

(9) Azevedo, M., op.cit, p. 95 .

(10) Saburi Biobaku and Mohamed AL Hajj. "The Sudanese Mahdiyya and the Niger-Chad Region" in : Lewis, I.M., Islam in Tropical Africa, Hutchinson 2nd ed. p. 227.

(11) Ibid., p. 230 .

(12) Ibid., p. 237 .

(13) Hiskett , M., The Development of Islam in West Africa, Longman, p. 52.

(14) Saburi Biadabu, op. cit, pp. 230- 323 .

(15) Azevdo, M., op. cit., p. 93 .

(16) The American Univereity, Chad, op. cit., p 37 .

(17) Azevedo, M., op. cit., 92 .

(18) Mazrui, A., The Semitic Impact on Black Arab and Jewish Cultural Influences, in: Issue XIII 1984, p. 4.

(١٩) من المستحسن فى هذا المجال أن نشير إلى بعض المصطلحات ، فاللغة بنية من العلاقات الصوتية والصرفية والنحوية ، في حين أن اللهجة dialect هى تركيب كلامى ينتمى إلى أصل لغوى معين ، ويتميز عن غيره من مشتقات ذلك الأصل اللغوى فى النطق والمفردات وبعض التراكيب ، أما اللكنة فهى تأتى من خلال نطق اللغة على نحو غير سليم ، وهذا ما أشار إليه الجاحظ ، فى وقت مبكر فى ضوء احتكاك العرب بالعجم فى مستهل الفتوحات الإسلامية ، وظهور

اللحن فى الأداء اللغوى ، حيث عرف الجاحظ اللكنة بأنها إدخال بعض حروف العجم فى حروف العرب ، أى التعبير الذى يطرأ على الأصوات العربية بسبب وقوعها تحت تأثير أصوات غير عربية.

(20) The American University, Chad, op. cit, p. 44.

(21) Ibid., p. 23 .

(23) Ibid., p. 36 .

(24) Ibid., p. 34 .

(25) Ibid, p. 31 .

(26) Sundkler, B., Steed. C., History of the Church in Africa, Cambridge, 2000, p. 646.

(27) Hill. W.R., op. cit., p. 233 .

(28) Andrew F. Walls, Africa in Christian History: Retrospect and Prospects, Journal of African Christian Thought, 1.1. 1998, p.2. in : Kwame Bediako, Africa and Christiainity on the Threshold to the Third Millennium : The Religious Dimension, African Affairs 2000, 99, p. 305 .

(29) Hiskett, op. cit. 52 .

(30) Azevedo, M., op. cit., p. 109 .

(31) Hiskett, M., op. cit., p. 314 .

(٣٢) انظر : اليونسكو ، تاريخ إفريقية العام ، المجلد الرابع من القرن الثانى عشر إلى القرن السادس عشر ، ص ص ٢٥ - ٢٧ .

(٣٣) المرجع السابق ، ص ٢٥٩ .

(٣٤) المرجع السابق ، ص ٢٥٧ .

(35) Lewis, Lm., op. cit, p. 213 .

(٣٦) جون لويس بوركهات ، رحلات بوركهات في بلاد النوبة والسودان، ترجمة فؤاد أندراوس ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، ١٩٥٩، ص ص ٣٢١- ٣٢٧.

(٣٧) سليمان محيى الدين فتوح ، الحركات السنوسية ، العرابية ، المهدية (دراسة مقارنة مع الإشارة لدور كل منها فى مقاومة الاستعمار الأجنبى) ، رسالة مقدمة للحصول على درجة الماجستير فى الدراسات الإفريقية من قسم التاريخ ١٩٨٨، معهد الدراسات الإفريقية - جامعة القاهرة ، غير منشورة، ص ٣١.

(٣٨) اليونسكو ، تاريخ إفريقية العام ، مجلد ٦ ، ص ٦٠٠ .

(39) Clarke, P, op. cit., p. 102 .

(40) Davidson, B., Africa, A History for a Continent, London, 1966, p. 98.

(٤٠) نعيم قداح ، حضارة الإسلام وحضارة أوربا الغربية فى إفريقية الغربية ، المكتبة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ط ٢ ، ١٩٧٥، ص ٩٧ .

(٤١) المرجع السابق ، ص ٩٥ .

(٤٢) المرجع السابق ، ص ١٠٠ .

(43) Hill, W.R., op. cit., p. 147 .

(٤٠) نعيم قداح ، مرجع سابق ، ص ١٠٠ .

(44) Clarke, P., op. cit., p. 103 .

(45) Ibid., P. 105 .

(46) Hiskett, M., op. cit., p. 276 .

(47) Ibid., p. 277 .

(48) Azvedo, op. cit., pp. 108, 109 .

(49) Ibid, pp. 109, 115 .

(50) Hill, W.R., op. cit., p. 142 .

(٥٠) رابح الصادق، الإسلام فى فرنسا من الغياب إلى الظهور الهوياتى، المستقبل العربى ، ١٩٩٨، ع ٢٣٣.

(51) Trimingham, S., A History of Islam in West Africa, Oxford, U.P., 1947, p. 226 .

(52) Robinson, D., «French Islamic and Practice», in: Late Nineth- century Senegal, Jour., Afr. Hist, 29 (1988) no. 30, p. 417 .

(53) Azevedo, M., op. cit., p. 98 .

(54) Hill, W.R., p. 147 .

(55) Azevedo, M., op. cit., p. 293 .

(56) Hill, W.R., op. cit., p. 148 .

(57) The American University, Chad, op. cit., pp. 78, 98.

(58) Soper, T., The Effect of Bilingualism on the Abstract and Concrete Thinking Ability of Yorouba Children, African Affairs, vol. 67., no. 267, p. 146 .